كامل كيلاني

أَشْهَرُ الْقِصَصِ

جَلِفَرْ

الرِّحْلَةُ الْأُولى

فِي بِلادِ الْأَقْزَامِ

رسوم : أحمد بيومي

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

وَلَدِي مصطفى[1]:

كان من الطبيعِيِّ ـ بعد أن أَتممْتَ قِراءةَ «مكتبةِ الأطفالِ» متدرِّجًا من السَّهل إلى الصَّعبِ ـ أَنْ تسهُلَ عليك القراءةُ ويَزِيدَ شَغَفُكَ بالْمُطالعةِ، وقد أصبحتَ ـ بعد هذه الْمَرَانةِ الطويلةِ ـ قادرًا عَلَى فهمِ الأُسلوبِ الأدبيِّ، بأدنَى تأمُّلٍ وأيسرِ انتباهٍ، وأصبحتَ الآنَ تقرأُ الكتابَ في ساعاتٍ ـ بعد أَنْ كنتَ تقرؤُهُ في أيَّامٍ ـ فكان ذلك أكبرَ باعثٍ لي على إظْهارِ هذه الحلْقةِ القصصية الجديدةِ؛ لتكونَ رفيقَكَ وسميرَك في آخر مرحلةٍ من مراحلِ طفولتِكَ، وأوَّلِ مرحلةٍ من مراحل صِباك.

فإذا انتهيتَ من قراءة هذه القِصَصِ، بدأتُ في إعداد «مكتبة الشَّبابِ» لكَ. وأنا أدعو اللهَ أن يُوَفِّقَني إلى إنجازها، كما وَفَّقَني إلى إنجازِ «مكتبة الأطفال».

كامل كيلاني

(١) نثبت في هذه الطبعة تمهيد الكتاب ومقدمته، كما نشرا في الطبعات السابقة.

أيُّها الصبيُّ العزيزُ:

ستقرأُ هذه القِصَّةَ المُمْتِعَةَ، وتَدْهَشُ أَشَدَّ دَهْشَةٍ حِينَ ترى أولئكَ الأقزامَ الذين تضاءلتْ أجسامُهمْ، حتى أَصبح «جَلِفَرُ» بينهمْ عِمْلاقًا هائلًا، ثم ترَى أُولئك العمالقةَ الذين عَظُمَتْ أجسامُهُمْ حتى أصبح «جَلِفَرُ» بينهمْ قَزَمًا ضئيلًا، وسترى في ذلك لونًا مُعْجِبًا من ألوانِ الخيال.

فإذا كَبِرْتَ تجلَّى لك أنَّ في هذا الخيالِ ـ الذي أعجبك ـ لوْنًا من الحقيقةِ، وأنَّ هذا الوصفَ الخياليَّ الرائعَ منطبقٌ على حقائقِ مَنْ تعاشِرُهم وتراهم في هذه الحياة.

سترى ـ أيها الصبيُّ العزيزُ ـ من الزعماءِ والأبطالِ مَنْ سَمَوْا بجلائلِ أعمالِهمْ على أَقْرانِهمْ؛ حتى أَصبحوا ـ بين جَمْهَرَةِ مُعاصريهم ـ عمالقةً بين أَقْزامٍ.

وما أَجْدَرَكَ أَنْ تُعِدَّ نفسك ـ منذ طفولَتِكَ ـ إعدادًا صالِحًا، وأَن تَحْرِصَ على التزوُّد من الثَّقافة والأدب؛ لتكونَ ـ في تفكيرِكَ ـ عظيمًا من العظماء؛ فيَرى فيك مُعَاصِروك عِمْلاقًا عظِيمَ الخطرِ.

فإن قصَّرْتَ في طُفولتِك، وتهاونْتَ في أَداءِ ما عليْك من الفُرُوضِ والواجباتِ، رأَيتَ نفسَك ـ بين أَفذاذِ مُعاصريك ـ قَزَمًا ضَئيلًا لا خَطَرَ لكَ ولا شَأْنَ؛ فإيَّاك.

الأَقْزامُ والْعَمالِقَةُ

زَعَمُوا رِجالًا كالنَّخِيلِ جُسُومُهُمْ
وَمَعاشِرًا قاماتُهُمْ أَشْبارُ
إنْ يَصْغُرُوا أَوْ يَعْظُمُوا فَبِقُدْرَةٍ
وَلِرَبِّنَا الإِعْظامُ والإِكْبارُ
يُسْتَصْغَرُ الْحَيُّ الْحَقِيرُ، وَتَحْتَهُ
أُمَمٌ تَوَهَّمُ أَنَّهُ جَبَّارُ

(أبو العلاء)

obeikandi.com

فاتحة القصة

١ ـ تعليمُ «جِلفَر»

لم يَكُنْ أَبي غنيًّا ولا فقيرًا؛ فقد كانَ دَخْلُهُ السَّنوِيُّ يكادُ يَفي بحاجات أُسْرَتِنا على الكَفافِ، ولم يَكُنْ يَمْلِكُ إلا ضَيْعَةً صغيرةً في «نُوتِنْجِهامَ» يُنفِقُ منها على أَولادِهِ الخمسةِ، وقد كنتُ أَوسطَهم.

وما إن بَلَغْتُ الرابِعَةَ عشرةَ مِنْ عُمُري، حتى أَدخلني مدرسةَ «عَمَنْويلَ» بجامعة «كَمْبرِدْجَ»؛ حيث قضيْتُ ثلاثَ سَنواتٍ في الدرسِ والتحصيلِ بِجِدٍّ واجْتِهَادٍ، ثم عجزَ أَبي عن مواصلة الإِنفاقِ عليَّ، فاختارَ لي أُستاذًا مشهورًا بمدينة «لَنْدنَ» اسمهُ الدكتورُ «جاك بِتْسُ»؛ ليمرِّنني على الْجِراحة، ويفقِّهني في الطبِّ؛ فقضيتُ عندهُ أَربعَ سنواتٍ، لم أَكُنْ أَظْفَرُ ـ في خِلالِها ـ من أَبي إلا بقليلٍ من النُّقود يبعث بها إليَّ بين حين وآخرَ. فأخذتُ نفسي بالتقْتيرِ؛ لأُنْفِقَ تلك النقودَ الضئيلةَ في شِراءِ ما أَحتاجُ إليه منَ الكتبِ الرياضيةِ وكتبِ السياحةِ. فقد أَعدَدْتُ نفسي ـ منذ نَشْأتي ـ لرُكوبِ البحارِ، وشَعَرْتُ أَنني لم أُخْلَقْ إلا لأكونَ ملَّاحًا، وما زالَ ينْمُو فيَّ هذا المَيْلُ حتى غلبني على أَمري، ومَلَكَ عليَّ كُلَّ نفسي.

٢ . زَوَاجُ «جَلِفَر»

ثـم تَرَكْـتُ الدكتـورَ «بِتْـسَ» وَعُـدْتُ إِلَى أَبي، فجمعـتُ ـ من عَمِّي وأَقاربي ـ أَربعين جنيْهًا لأَذْهبَ بها إلى «هُولَنْدا»، وأَتعلَّمَ صِناعَةَ الطبِّ في مدينـة «لِيـدِنَ». وضَمِنَ لي أَهلي أن يرسـلوا إِلَيَّ أَربعين جنيهًا أُخرى في العـام القادم، وقد بذلتُ جُهْدي كلَّه متفقهًا في درس الطبِّ عامين؛ لأنني كنتُ على يقين من أنه سيكون لي خيرَ مُعينٍ في أَسفاري ورِحلاتي القادمة.

ومـا عُـدْتُ مـن «ليـدِنَ» حتَّـى عُيِّنْـتُ جَرَّاحًـا بأحـد الْمَشـافي (المُستشـفيات) بوساطة الدكتور «بِتْسَ»؛ حيث مكثتُ ثلاثَ سنواتٍ ونصفَ سـنة، قمتُ في خِلالها بكثيرٍ من السِّياحات في البلاد الشرقية. ومـا كِـدْتُ أنتهي من ذلك حتى صَحَّـتْ عزيمتي على الإِقامـةِ بِمَدِينَةِ «لَنْدَنَ»، وشـجَّعني الدكتورُ «بِتْسُ» على تحقيقِ هذه الفكرةِ؛ فقد عَهِدَ إِلَيَّ بأمرِ العنايةِ بِمَرْضاهُ.

ثـم اكْتَرَيْـتُ طَابَقًا صَغيرًا في أَحَـدِ فنادق «لَنْدَنَ»، وتزوَّجْتُ سـيِّدةً كريمةً أبوها تاجِرٌ، فمنحتني أربَعَمِائةِ جنيهٍ، فادَّخرْتُها للحاجةِ؛ لتكونَ عَوْنًا لنا على الأَزَماتِ والشدائدِ.

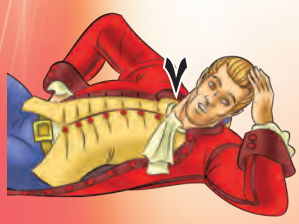

٣ ـ دَوافِعِ السفرِ

وما إِن ماتَ الدكتور «بِتْسُ» حتى حَلَّ بصناعتي الكسادُ، وقلَّ عملي بعد أن فقدتُ أكبر نَصيرٍ لي في الحياة، ولم يكن أمامي وسيلةٌ للنجاح في صِناعتي إلاَّ أن أسْلُكَ سُبلًا لا يرتاح إليها ضميري، ويأباها عليَّ شرفُ مِهْنتي؛ فقد كان أكثرُ الأطباء حينئذٍ يَلْجَئون إلى وسائلِ الخِداعِ والدَّجْلِ (أَيِ الْكَذِبِ)؛ ليُرَوِّجوا لِمِهنتِهِمْ، ويستدِرُّوا الكَسْبَ بتلك الوسائِلِ الدَّنيئةِ التي لا أَرْتَضِيها لنفسي ـ مهما تشتدُّ بي الفاقَةُ ـ فلم أَرَ وسيلةً للخروج من هذا الْمَأْزِقِ إلا الهجرةَ والرحيلَ إلى بلادٍ أخرى؛ تلمُّسًا للكسب، فاسْتَشَرْتُ ـ في ذلك ـ زَوْجي وخُلَصائي فلم يُمانِعوا.

وثمةَ صَحَّتْ عزيمتي على السفر، واشتغلت طبيبًا في إحدى السُّفنِ الكبيرة، وظَفِرْت بِقِسْطٍ من الثروة، بعد أن رحلتُ عدة رِحْلات إلى الهند الشرقية والغربية وغيرها. وكان جُلُّ همي أن أُطالِعَ كتب المؤلِّفينَ القدماءِ والْمُحْدَثينَ، وأن أُعْنَى بدرس أخلاق الشعوب ولُغاتِهم، وساعدتني ذاكِرَتي القويةُ على ذلك.

وكانت آخرُ رِحْلة لي غيرَ موفَّقة؛ فاعتزمت أن أعود إلى بلدي وأَقْضِي حياتي بين زوجي وأولادي، وقد لبثت بعد عودتي ثلاثَ سنواتٍ أُؤَمِّلُ خلالها أن أَجِدَ عملًا ـ يكفيني وأهلي ـ فَلَمْ أَظْفَرْ بِطَائِلٍ. فاضْطُرِرْتُ إلى السفرِ مرةً أخرى في سفينةٍ كانت ذاهِبةً إلى جزائرِ الهندِ

الشـرقيةِ، فأقلعَتْ بنا من «برسـتولَ» في ٤ مايو سنة ١٦٩٩، وكان أولُ الرحلـة مُوَفَّقًا سَـعِيدًا، وَلَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ ما يَخْبَؤُهُ لنـا الْقَدَرُ من النكباتِ والْمَصائِبِ.

٤ ـ هُبوبُ العاصفةِ

وقد لَقِيتُ في رِحلتي كثيرًا من الحوادث التي لا تَعْني القارئَ كثيرًا، فَلأَضْـرِبْ عنها صَفْحًـا، وَلْأَكْتَفِ بذكرِ الحادثةِ التي تَرَكَتْ في نفسـي أكبرَ الأثرِ.

مـا كادتِ السَّـفينةُ تقتـربُ مـن نِهايةِ الرحلـةِ حتى تبدَّلَ كُلُّ شـيءٍ ـ فقد كان البحرُ هادِئًا جَمِيلًا، وكُنَّا سُـعَداءَ برحلتِنا البهيجةِ ـ ففاجأَتْنا عاصِفـةٌ هَوْجَاءُ، فاضطرب البحرُ وَهَـاجَ، وتعالتِ الأمواجُ كالجبالِ، وما زالتِ العاصفةُ تَشْتَدُّ وتعنُفُ، والْمَلاحُونَ يَبْذلون أقصَى جُهُودِهِمْ في مُغَالَبَتِها، حتى لقد مَاتَ مِنْهُمُ اثنا عَشَـرَ رَجُلًا ـ لِشِـدَّةِ ما كابَدُوه مِنَ الجُهْدِ والإعياءِ ـ وَأَصْبَحْنَا نَتَوَقَّعُ الهَلاكَ بين لحظةٍ وأخرى.

وفي اليـوم الخامـس من نوفمبر، وهـو أَوَّلُ يَوْمٍ مِـنْ أَيَّامِ الصيفِ في تلـك البـلادِ، أبصرْنا صخرةً تقتربُ منها سـفينتُنا، فَحَاوَلْنَـا جُهْدَنا أن نبتعدَ بالسـفينةِ عنها، فلمْ نُوَفَّقْ؛ وغلبتْنـا الأمواجُ عَلَى أَمْرِنا، فاندفعتْ بِسـفينتِنا إلى تلك الصخرةِ، فصدمَتْها صَدْمَةً عنيفةً؛ فَتَحَطَّمَتْ أَلْوَاحُها

١٠

وَغَرِقَتْ ـ لِوَقْتِها ـ وغَرِقَ ملَّاحُوها، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إلا سِتَّةٌ كانوا مَعِي.

وقد كانَ من حُسْنِ حظِّنا أن أَسْرَعْنَا إلى زَوْرَقٍ قَبْلَ أَنْ تَصْطَدِمَ السفينةُ والصخرةُ، وما زِلْنا نُسَيِّرُ الزورقَ بقوةٍ حتَّى قَطَعْنَا ثلاثةَ أميالٍ، ثُمَّ غلبَنا التعبُ وأجهدَنا الكَدُّ، فتركنا أنفُسَنا تَحْتَ رحمةِ الأمواجِ الهائجةِ.

وبعد قليلٍ هَبَّتْ رِيحٌ شمالِيَّةٌ عنيفةٌ فقلبتْ زَوْرَقَنَا، ولا أعرفُ ماذا أصابَ رِفاقي جَمِيعًا. وَأَحْسَبُهُمْ لَمْ يَنْجُوا من الهلاكِ. أما أنا فَظَلِلْتُ أَسْبَحُ ـ عَلَى غيرِ هُدًى ـ حتَّى هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ قليلًا، وَكُنْتُ كُلَّما دبَّ اليأسُ إِلَى قَلْبي، اعْتَصَمْتُ بالصبرِ وَتَعَلَّقْتُ بالأملِ، حَتَّى نُهِكَتْ قُوايَ، ولم أَسْتَطِعْ حَرَاكًا، فاستسلمتُ للقدرِ، وفوَّضْتُ أمري إلى اللهِ.

وَإِنِّي لكذلك إذْ قَذَفَتْني مَوْجَةٌ قَوِيَّةٌ نحو الشاطئ، فرأيتُ الأرضَ قريبةً مِنِّي، فَسِرْتُ حَتَّى وَصَلْتُ إلى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَفَتَّشْتُ عَنْ مَكَانٍ آوِي إِلَيْهِ، فَلَمْ أَجِدْ أثرًا لإنسانٍ أو نَبَاتٍ، فاستلقيتُ عَلَى ظَهْرِي وَنِمْتُ نَوْمًا عَمِيقًا ـ لِشِدَّةِ ما أَحْسَسْتُ مِنَ الجُوعِ والنَّصَبِ ـ وَلَمْ أَسْتَيْقِظْ مِنْ نَوْمِي إلا بَعْدَ تِسْعِ ساعاتٍ كاملةٍ.

في بِلَادِ الأَقْزَامِ

الفَصْلُ الأَوَّلُ

١ ـ في قَبْضَةِ الأَقْزَامِ

لـم أَكَـدْ أُفيقُ مـنْ نومِي حتـى رأيتُ نـورَ الشـمسِ قدْ مـلأَ الدنيَا؛ فحاولتُ أنْ أنهَضَ، فرأيتُني لا أسـتطيعُ النهـوضَ، وذهبتْ مُحاولتِي عبثًا؛ فلقدْ وجدتُني مستلقِيًا علَى ظهرِي وأنا مُوثَقُ اليدينِ والسَّـاقينِ، وقـد شُـدَّ شَـعَرِي إلى الأرضِ بخيـوطٍ دقيقـةٍ، ورأيتُ كثيـرًا منْ تلك الخيوطِ ملفوفًا حولَ جسمي من الْمَنْكِبَيْن إلى الفَخِذَيْن!

وكانـت الشـمسُ مُرْسِـلةً أَشِـعَّتَها القويةَ عـلى عينـيَّ، فحاولتُ أن ألتفـتَ يَمْنَةً أوْ يَسْـرَةً فلمْ أسـتطعْ إلى ذلك سـبيلًا، وقد تَـأَذَّتْ عيْناي بِوَهَجِ الشـمس، وكادتـا تَتْلَفَانِ، ثمَّ طرقتْ أُذُنيَّ أصـواتٌ خافِتةٌ غريبةٌ بالقـربِ منِّي، فحاولـتُ أنْ أرَى مصدرَها، فلمْ أسـتطِعْ أنْ أتبيَّنَهُ؛ لأنَّ ضوءَ الشمسِ ـ الذي كاد يُتلفُ عينَيَّ ـ منعني أن أرى شيئًا، ثم شعَرْتُ بأشـياءَ تتحركُ على ساقِيَ اليُسْرَى مُرْتَقِيَةً بخِفَّةٍ إلى صدرِي، وما زالتْ سائرةً حتى وصلتْ إلى ذَقَنِي!

وشـدَّ ما كانت دهشتي حين رأيتُ أمامي وجهَ إنسانٍ صغيرٍ لا يَزيدُ طولُـهُ عـلَى إِصْبَعَينِ، وبيدهِ قوسٌ وسـهمٌ صغيرانِ، وعـلَى ظهرهِ جَعبةٌ مملـوءةٌ بالسِّـهامِ الصغيـرةِ! ثـم رأيتُ نحـوَ أربعينَ شـخصًا ـ في مِثْل طولهِ وهيئتهِ وزِيِّهِ ـ فصرختُ منْ فَوْري صرخاتٍ مزعجةً؛ فأسـرعتْ تلك الحشراتُ الآدميةُ هاربةً، وامتلأتْ قلوبُهمْ رُعبًا وهَلعًا، وأُصِيبَ بعضهمْ ـ كمَا علمتُ فيما بعدُ ـ بجروحٍ خَطِيرةٍ حين هَوَوْا إلى الأرضِ! وقد حسِـبْتُني خلَصتُ منْ شرهمْ، ولكنني لمْ ألبثْ أنْ رأيتهمْ يقفِزونَ على جسـمِي مـرةً أخـرَى، وقد جَـرُؤَ أحدهمْ فتقـدمَ حتى وصـلَ إلَى وجْهـي، ورفعَ يديـهِ وفتحَ عينيهِ مُتَفَرِّسًـا في ملامِحِي، وقـدْ بدتْ علَى أسـاريرِه أماراتُ الدهشـةِ والعجبِ، ونطـقَ بجملةٍ لمْ أفهـمْ معناها؛ فأعادها رفاقهُ مُهَلِّلينَ مكبِّرينَ.

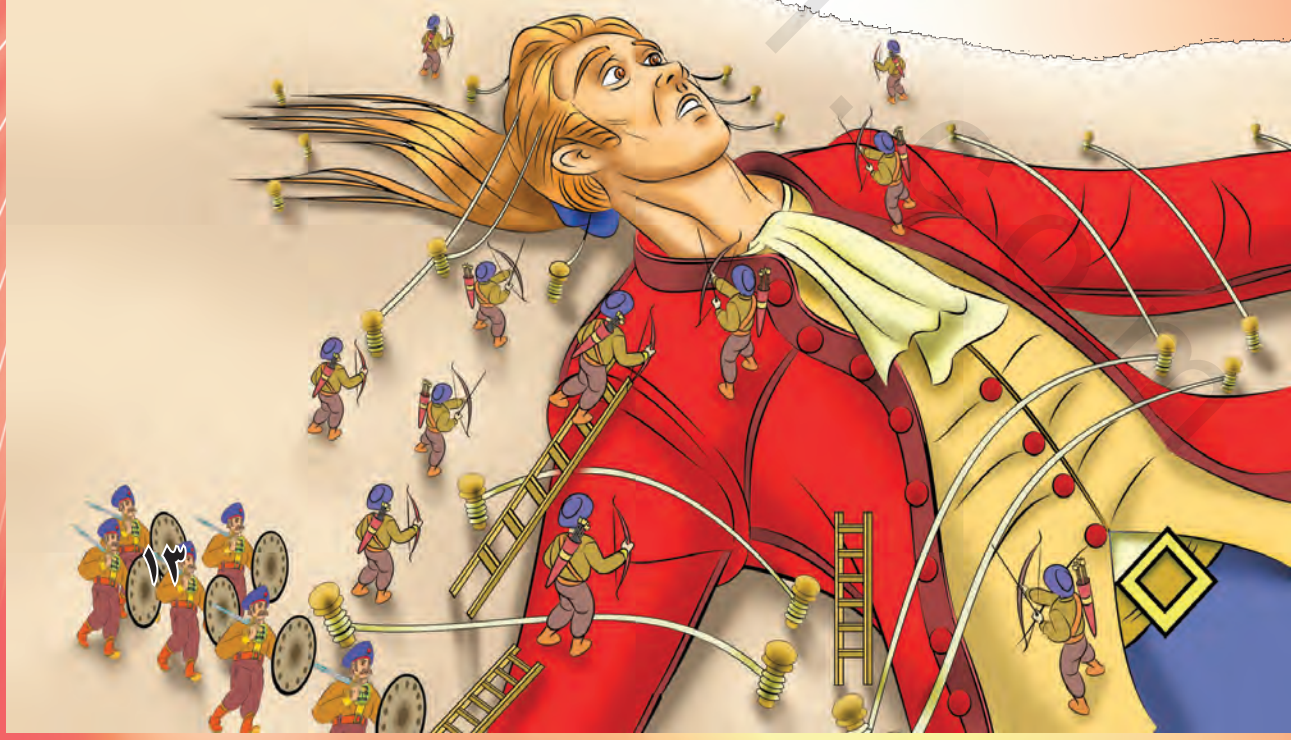

٢ ـ حربُ الأقزامِ

وفي استطاعةِ القارئ أنْ يُمَثِّلَ لنفسهِ حَرَجَ موقفي، وشدةَ دهشتِي حينْ رأيتُني مُكَبَّلًا مُوثَقًا بالحبالِ من غيرِ جَرِيرَةٍ ارتكبْتُها. وقد كان من الطبيعيِّ أنْ أبذلَ كُلَّ ما في وُسْعِي؛ لأتخلَّصَ من تلك القيودِ، فرفَعتُ رأسي ـ بقوةٍ شديدةٍ ـ فانقطعَ كثيرٌ منْ الخيوطِ الدقيقةِ التي شُدَّ بها شعَرِي من الجهةِ اليمنَى، وقد تألَّمْتُ لذلك أَلَمًا شديدًا، ولكنني استطعتُ أن أُحرِّكَ رأسِي يَمْنَةً ويَسْرَةً فأَرى شيئًا ممَّا حولي، ثمَّ جَذَبْتُ يَدِيَ اليمنَى بقوةٍ؛ فقطعتُ الخيوطَ التي أوثقوني بها.

وما إن رَأَى الأقزامُ ما صنعتُ، حتى شمِلَهُمُ الفَزَعُ، وهربُوا مذعورِينَ، ونطقَ أحدهمْ بجملةٍ لمْ أفهمهَا، ومَا أَتمَّها حتى أَطْلَقَ أَصحابُهُ أَكثرَ منْ مائةِ سهمٍ على يَدِيَ اليمنى، ثم أَتْبَعُوها بسهامٍ ـ لا عِدادَ لها ـ قذفُوا بهَا في الهواءِ ليُرهبوني؛ فأكُفَّ عن مُقاومتهمْ، وقد أَحسستُ منْ وقعِ هذهِ السهامِ مِثلَ وَخْزِ الإِبَرِ، وتألَّمْتُ منها ـ على دِقَّتها وصِغَرِها ـ أَشدَّ الألم.

فصبَرْتُ قليلًا ثم تجمَّعَتْ شجاعتِي، فهممتُ بفكِّ قُيودِي مرَّةً أُخرى، وما فعلتُ حتى أَمْطَرَني الأقزامُ وابِلًا من سهامهمُ الدقيقةِ، وكنتُ ـ لِحُسْنِ حظِّي ـ مُرتديًا صِدارًا من جلدِ الجاموس؛ فلم تنْفُذْ إلى صدرِي سهامهمْ.

ولَمَّا رأَيتُ أَن كلَّ محاولةٍ للفَكاكِ لن تَنْتُجَ إلا شرًّا، آثرْتُ الهدوءَ والسَّكينةَ، وانْتَوَيْتُ البقاءَ إلى الليلِ؛ ليتسنَّى لي فَكُّ قيودي في الظلامِ.

٣ ـ خَطِيبُ الأَقزامِ

ومَا إنْ رأَوْا هدوئِي واستسلامِي، حتَّى كفُّوا عنْ إطلاقِ سهامهمْ، وكنتُ أَراهمْ يزدادونَ زيادةً مُطَّرِدةً ـ لَحْظةً بعدَ أُخرى ـ فلم تُخِفْني كثرةُ عَددهمْ؛ لأنني كنتُ على يقينٍ من قدرتي علَى الفَتْكِ بأكبرِ جيشٍ منْ جيوشهمْ، وسحقِهِ بأقدامي ـ مهما يكْثُرْ عددُهُ ـ بأيسرِ جُهدٍ.

وبعدَ قليلٍ سمعتُ صوْتَ عُمَّالٍ منهمكينَ في العملِ، فأدرتُ رأْسِي يَسْرَةً، فرأَيتُ جماعةً منَ الأَقزامِ يعملون بِجِدٍّ في إقامةِ مِنْبَرٍ علَى جانبيهِ سُلَّمانِ، فلما أَتَمُّوهُ صَعِدَ إليه سَيِّدٌ مِن سَرَاتِهِمْ، ولمْ يكدْ يبلغُ أَعلاه حتَّى نَهَكَهُ التعبُ. وكان ارتفاعُ هذا الْمِنْبَرِ الذِي أَعْلَوْهُ قدمًا ونصفَ قدم. وقدْ صعِدَ ـ مع هذا السَّرِيِّ ـ ثلاثةٌ من خدمِهِ، فوقفَ واحدٌ منهمْ إلى يمينِهِ، وآخرُ إلَى يسارِهِ، وثالثٌ منْ ورائِهِ يحملُ أَطرافَ ثوْبِهِ الطويلِ، ثمَّ أَخذَ الخطيبُ يُلْقِي عليَّ خطبةً طويلةً لمْ أَفْقَهْ منها كلِمةً واحدةً.

وكانَ يصيحُ بأعلَى صوتِهِ، وأَنا لا أكادُ أَسمعُ منهُ إلَّا جَرْسًا خافِتًا، وهو على قِيدِ شِبْرٍ منِّي، وكان صوْتُهُ الخافِتُ مناسبًا جسمَهُ الضَّئيلَ، ولم يكنْ شابًّا ولا شيخًا، بل كَهْلًا تَلُوحُ على وجهِهِ أَماراتُ النشاطِ والْجِدِّ، وقد

عرفتُ ـ من حركاتهِ وَإشاراتهِ، وطَلاقةِ لِسانهِ، وإعجابِ سامِعيهِ بحسنِ بيَانـهِ ـ أَنـهُ من خُطبائهمُ النابغيـنَ الْمُتَصَرِّفينَ في فنونِ القولِ وأَسـاليبِ البيانِ.

ورأَيـتُ مـنْ حسـنِ الأدبِ أَنْ أَرُدَّ على خطبتـهِ ـ وَإِنْ لَـمْ أَفْهَمْ منها كلمـةً واحدةً ـ بإِشـاراتِ الخضوعِ والاستسـلامِ؛ فهمسـتُ بكلماتٍ خافتةٍ؛ حتَّـى لا يُؤْذِيَهُ صوتي الطبيعيُّ الذِي كانَ ـ لارتفاعهِ ـ يُزعجهمْ ويُؤذيهمْ، ويُصِمُّ آذانهمْ. وَأَشَـرْتُ إليهِ بمَـا يفهمُ منهُ أَنني جائعٌ، فنزلَ عنْ مِنبرهِ، وأَمرَ منْ حولهُ بإِحضارِ ما أَحتاجُ إليهِ منْ طعامٍ وشرابٍ.

٤ ـ طَعَامُ «جَلِفر»

وبعدَ قليلٍ أَحضرُوا إليَّ منَ الطعامِ والشـرابِ ما حَسِبُوا أَنهُ يكفيني، ثـمَّ صَعِـدَ إِليَّ أَكثرُ مـنْ مِائةِ قَـزَم على سـلالِمَ وضعُوها علَى جسـمِي، وسـارُوا مُرْتفعِين إِلى فمِي، وفي أيديهمْ سِلالٌ مملوءةٌ باللحمِ والخبزِ، وكانـتْ خِرْفانُهـمْ لا تزيدُ علَى حجمِ الضفادعِ الصغيـرةِ، فكنتُ أَلْتهمُ خمسـةً منْها وستَّة أرغفةٍ في فمِي مرةً واحدةً، وَهُمْ يَدْهَشونَ منْ ذلكَ، ويتملكهـمْ الذُّعـرُ والفزعُ. ثمَّ أشـرتُ إليهمْ أنني في حاجـةٍ إلى الْماءِ، فأحضَـرُوا إليَّ أكبـرَ بِرْميلٍ عندهمْ، وما زالـوا يُدَحْرِجونهُ حتَّى اقتربَ منْ فمي، ففتحوهُ فجَرَعْتُهُ كلهَ جَرْعَةً واحدَةً، فصفَّقُوا مدهوشـينَ ممَّا

رأَوْا، ورقَصُوا منْ شدةِ الفرحِ ـ ولهمُ العذرُ في ذلكَ ـ فإنهمْ لمْ يروْا في حياتهمْ رجلًا في مثلِ هذهِ الضخامةِ، ولقدْ كنتُ بينَ هؤلاءِ الأقزامِ كأنني جبلٌ شامخٌ، وقدْ أكلتُ منْ طعامهمْ مَا يكفي لغذاءِ جيشٍ كبيرٍ منهمْ شهرًا كاملًا، وقد كانوا فَزِعِين من رُؤيتي؛ فلمَّا أمِنُوا بَطْشِي ورَأَوُا استسلامِي وهدوئِي، انطلقُوا يُغَنُّونَ ويَمْرَحون، وتزاحمُوا إليَّ يرقصونَ علَى صدرِي، وقدِ استولَى عليهمُ السرورُ والابتهاجُ.

وقدْ كانَ في قدرتي أنْ أقذفَ بهمْ إلَى الأرضِ، وأنْ أُهلكهمْ في لحظةٍ واحدةٍ، ولكنني رأيتُ ـ منْ كرمِهمْ وحسْنِ معاملتِهِمْ ـ ما لمْ يكنْ يخطُرُ لي علَى بالٍ، فلمْ ألجأْ إلَى القوةِ، ولمْ أشأْ أنْ أُعكِّرَ عليهمْ صفاءهمْ وابتهاجَهمْ.

ولمَّا انتهيتُ منْ طعامِي شعَرْتُ بحاجةٍ إلَى النومِ، وقدْ علمتُ ـ فيما بعدُ ـ أن الإمبراطورَ كانَ قد أوفدَ سفيرهُ لنقلي إلَى مدينتِهِ، وأنَّ ذلكَ السفيرَ قدْ أمرهمْ بوضعِ مادةٍ منوِّمةٍ في شرابي الذي سقَوْنيهِ، وقد أُعْجِبَ سفيرُ الإمبراطور بهدوئِي واستسلامِي، فأشارَ إليهم بكلام لمْ أفهمهُ، فأحضرُوا إليَّ دواءً شمِمتُ له رائِحةً ذكيةً، فمرهمُوا جُروحِيَ التي سبَّبَتْها سهامهمْ، فشُفيتُ في الحالِ، وزالتْ آثارُ السهامِ، ثمَّ أمرهمْ أن يقطعُوا بعضًا منَ الخيوطِ التِي أوثقوني بها؛ لأتمكنَ منَ النومِ علَى جانبي، وما كادُوا يقطعُونها حتَّى استسلمتُ للنومِ، وما زلتُ نائمًا ثمانيَ ساعاتٍ كاملةٍ.

٥ ـ مَهَارَةُ الأَقْزَامِ

وكانَ لهـؤُلاءِ الأقزامِ خبرةٌ عجيبةٌ بعلومِ الهندسـةِ، ومهـارةٌ فائِقَةٌ في كلِّ مـا يُزاوِلونهُ منَ الأعمالِ، فما إن أمرهمْ سـفيرُ الإِمْبرَاطورِ بنقلي إلَى عاصِمةِ المملكةِ، حتَّى ذلَّلُوا كُلَّ عقبةٍ في سبيلِ تنفيذِ إرادتهِ.

وقـد علمتُ ـ فيمـا بعدُ ـ أنه عَهِدَ إلى خمسـة آلاف نجَّـارٍ ومهندسٍ بعمَلِ عربةٍ كبيرةٍ يحمِلُونَني عليْها، علَى أنْ يكونَ ارتفاعُها ثلاثَ أصابعَ، وطولُها سبعَ أقدامٍ، وعرضُها أربعَ أقدامٍ، وبها اثنتانِ وعشرون عجلةً.

فلما انتهَوْا من صُنعِها، أقاموا ثمانين عمُودًا ارتفاعُ كلٍّ منها قدمانِ، وفي أعلاه بَكَراتٌ، ثم أنفذُوا خيوطًا متينةً مُحكمةَ الفَتْل في هذِهِ البكرات، وفي آخرِ كلِّ خيطٍ منها شِصٌّ، ثم ألقَوْا عَليَّ تِلْكَ الشُّصوصَ وشدُّوها بقوةٍ. وتعاوَن تِسْعُمِائةٍ من أَقْوِيَائِهِمْ على شدِّ تلك الخيوط، حتى وَضعوني في تلك العربةِ، وأنا مستغرقٌ في نومٍ عميقٍ!

وقدْ أنجزُوا كُلَّ هَذَا الْعَمَلِ في نَحْوِ ثَلاثِ سَاعَاتٍ، ثمَّ شَدُّوا إلى تلك العربةِ ألفًا وخَمْسَـمِائةِ جوادٍ من أقوى خيولِ الإِمبراطورِ، وكان ارتفاعُ كلِّ جوادٍ منها أربعَ أصابعَ ونصفَ إصبعٍ. ثم سـارتِ العربةُ في طريقِها إلى مدينةِ الإِمبراطورِ.

٦ ـ في أَنْفِ «جَلِفَر»

ومَا زالتِ العربةُ سـائِرةً نحوَ أربعِ ساعاتٍ، ثمَّ استيقظتُ فجأةً لوقوعِ حادثٍ عجيبٍ؛ فَقَدْ وَقَفَتِ العَرَبةُ في الطَّرِيق رَيْثَما يَتِمُّ إصلاحُ عَطَبٍ يَسِيرٍ أَصَابَ أَحَدَ أَجْزَائِهَا، وَفي أَثْنَاء وُقُوفِ العَرَبَةِ دَفَعَ الفُضولُ ثلاثةً من الأقزامِ إلى التمتع برؤْيةِ جسـمي ووجهي، فتقـدَّمَ أحدُهمْ إلى أنفي، وكانَ ضابِطًا جريئًا طُلَعَةً يميلُ إلى الدُّعابةِ والمزاحِ، وكأنما أرادَ أن يَخْبُرَني ويقفَ على تركيبِ جسمِيَ الضخمِ العجيبِ.

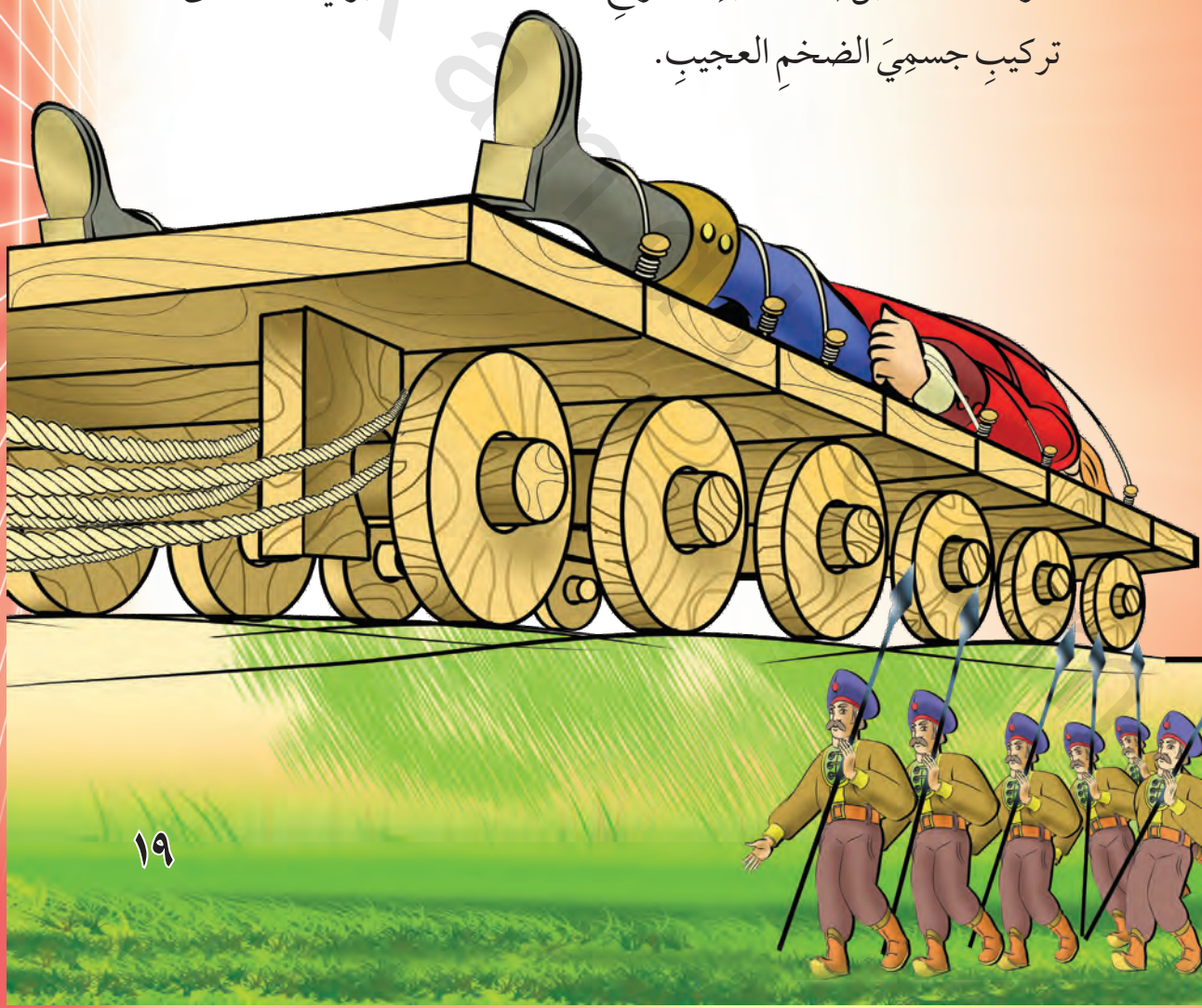

وما إِن وَصَلَ إلى أنفي ورأَى طاقتَيْه حتى خُيِّل إليه أَنَّهما كَهْفانِ، فدفعهُ فضولُـهُ إِلى سَـبْرِ غَوْرِهمـا، فوضـع في إحدَاهُمـا رُمحَه الصغيـرَ، وحين أحسستُ وخزةَ رمحهِ في أنفي عَطَسْتُ؛ فتقاذفَ منْ أنفِي رشاشٌ نَفَذَ إلى الضابـطِ كأَنهُ رَصاصٌ؛ فانقلبَ علَى ظَهْرِهِ مِنْ شِـدَّةِ الذُّعرِ، وعَادَ أدْراجَه هو وَرفيقَاه وهمْ يرتجفونَ منْ شِدَّةِ الخوفِ.

٧ ـ استئنافُ السَّبْر

ثمَّ استأنفتِ العربةُ سيرَها، وما زالتْ سائِرةً بقيةَ النهارِ، حتَّى إذا أَدركَنا الليْلُ، قامَ علَى حراستِي خَمْسُمِائةِ حارسٍ، يحملونَ قِسِيَّهُمْ وَسِهامَهمْ؛ ليسدِّدُوهَا إِليَّ إذا حاوَلْتُ الفَكَاكَ من أَسْرِي. وإلى جَانِبِهِمْ خَمْسُمِائةِ قَزَمٍ يحملونَ الْمَشَاعِلَ لتُضِيءَ لَهُمُ السَّبيلَ.

واسـتأنفنَا السيرَ مرةً أُخْرى حِينَ أَشْرَقَتِ الشمسُ، ومَا زِلْنا سائِرين إِلَى وقـتِ الظُّهـرِ؛ فلـمْ يبـقَ بيننَا وبيـنَ المدينـةِ إلا مائتَـا ذِراعٍ، فرأينا الإِمبراطورَ وجميعَ رجالِ حاشـيتِهِ قدْ خرجُوا لاسـتقبالِنا، وَالتقَوْا بنَا في ذلـكَ الْمَكانِ، وكانَ الإِمبراطورُ شـديدَ الشَّـوقِ إِلى رُؤيتي ـ بعدَ مَا سـمعهُ عَنِّـي منَ الغرائبِ وَالْمُدْهِشـاتِ ـ وقدْ رأَيتـهُ في مَوْكِبٍ حافِلٍ، وقدْ حاوَلَ أَنْ يتقدمَ نحوِي، فحذَّرهُ بعضُ أَتباعِهِ الدُّنُوَّ منِّي، والصعودَ إِلَى جسمِي؛ حتَّى لا يحدُثَ لهُ مكروهٌ، أَوْ يُصابَ بأَذًى.

٨ ـ الهَيْكَلُ المهجورُ

وكانَ في ذلـكَ الْمَكانِ الذِي حللْناهُ معبدٌ قديمٌ، وهوَ يُعَدُّ بحقٍّ أكبرَ هيكلٍ في جميع أرجاءِ المملكةِ، وقدْ كانُوا يصلّونَ فيهِ، ثمَّ هجروهُ بعدَ أنْ تدنَّسَ منذُ بضعِ سنواتٍ؛ فقد وَقعَ فيه حادِثُ قتلٍ، فأصبحَ ـ على حسَبِ تقاليدِهمْ وعاداتهمْ ـ دَنِسًا بعدَ أنْ كانَ مُقَدَّسًا؛ فهجروهُ بعدَ أنْ نقلُوا كلَّ ما فيه مِنْ أثاثٍ وَطُرَفٍ إلى معبدَ آخرَ. وكان ارتفاعُ البابِ الشَّماليِّ الكبير أربعَ أقدامٍ وَعرضُه قدمينِ، وَبه نافِذَتَانِ ترتفعانِ عنْ سطحِ الأرضِ إصْبَعَيْنِ، وَطُولُ كلٍّ منهما ستُّ أَصابعَ.

ثم جاءوا بإِحْدَى وَتِسْعِينَ سلسلةً في حجمِ السلاسلِ الرقيقةِ التي نُعلِّقُ بها ساعاتِنا، وكانَ طولُ كلِّ سلسلةٍ منها سِتَّ أقدامٍ، فشدُّوهَا إِلَى ساقِيَ اليُسْرَى، وأَحْكَمُوا رِباطَها بستةٍ وثلاثين قُفْلًا؛ حتى لا يدَعُوا لي وسيلةً للفِرَارِ.

٩ ـ البُرْجُ العالي

وكانَ أمامَ ذلكَ الهيكلِ ـ وعلَى مسافةِ عشرينَ قدمًا منهُ ـ بُرْجٌ عالٍ ارتفاعُهُ خمسُ أقدامٍ، فصعِدَ الإمبراطور وحاشِيَتُه إلى ذِرْوَتِهِ؛ ليتسنَّى

لهم رؤيتي والتَّحَقُّقُ منْ شكْلي، وهُمْ بِمَأمَنٍ منْ كلِّ خطرٍ، واشتدَّ زِحامُ الشعبِ حوْلي؛ فقد ذاعَ صِيتي في أَرجاءِ تلك البلادِ، وأقبلَ الناسُ من كلِّ مكانٍ؛ ليرَوْا ذلك العِمْلاقَ الهائلَ الذِي أطلقَ عليهِ أهلُ تلك البلادِ اسمَ «الجبَلِ الآدَمِيِّ»، فتوافَدُوا مُسْـرِعينَ إلى رؤيتِي، وصعِدَ إلى جانِبي نحوَ عشرةِ آلاف قَزَمٍ؛ فأشفق الإِمبراطورُ عليَّ، وأمرَ بإنزالهمْ جمِيعًا، وحرَّمَ على شعبهِ الصُّعودَ إِلى جَسَدِي، وهدَّدَ منْ يخالفُ أمرَهُ بالقتلِ.

ثـم أمرَ الإِمبراطورُ بقطْـعِ الخيوط التي كانوا قد أَوْثقوني بها من قبلُ؛ فنهضتُ واقِفًا، وسرتُ حولَ الْوَتِدِ الذِي شدُّوا إليهِ السلاسلَ في دائرةٍ قصيرةٍ أمامَ ذلك الهَيْكلِ العَتِيقِ.

وليسَ في وُسْعِ إنسانٍ أن يتصورَ مقدارَ دهشةِ هذا الشعبِ وعَجَبِهِ حين رآني واقفًا علَى قدميَّ، وكانَ طولُ تلك السلاسـلِ نحوَ سِـتِّ أقدامٍ، فأصبحتُ أستطيعُ أنْ أروحَ وأَغْدُوَ في شكلِ نصفِ دائرةٍ.

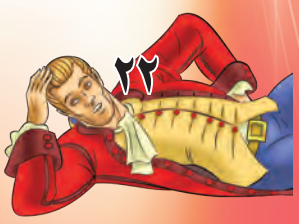

الفَصْلُ الثَّانِي

١ - زِيارَةُ الإِمْبِراطورِ

وفي ذاتِ يـوم جـاء الإِمبراطـورُ ليراني في سِـجْني ـ وهو راكبٌ على ظهـر جـوادِهِ ـ وقد كبَّدَتْه تلـك الزيارةُ كثيرًا من المتاعـبِ التي تغلَّب عليها بشـجاعته وثبات جَأْشـه؛ فإن جوادَ الإِمبراطورِ أَجْفَلَ من شـدة الخوفِ حين رآني، ولولا قوةُ الإِمبراطور ودُرْبَتُه ومهارته في الفروسية لوقـع عن ظهر جوادِهِ، ولكنـه ظل لمهارته ثابتًا رابِـطَ الجأش، وكأنه لم يحدثْ شـيء. وقد أسـرع رجالُ حاشـيته فأمسـكوا بعِنانِ جواده، فترجَّـلَ الإِمبراطورُ، وأخذ يُجِيلُ نظره فيَّ، ويدور حولي ليراني من كل جهة وهو بعيد عن متناوَل يدي؛ حتى لا يُعَرِّضَ نفسَه للأخطار.

وجلستِ الإِمبراطورةُ وأمراءُ القصر وأميراتُه على مقاعِدَ أُعِدَّتْ لهم على مسـافةٍ قريبةٍ. وكان الإِمبراطورُ أَطْوَلَ من رأيتُه من هؤلاء الأقزام وأقواهـم بأسًـا؛ ولهذا أصبـح مَوْضِعَ هيْبَتِهِـمْ وإجلالِهِـم. وهو أَقْنَى الأَنْفِ، زيتونيُّ اللَّون، مُتَناسِبُ الأعضاء، دَمِثُ الخُلُق، رَزِينٌ، تتجلَّى في كل حركاته مظاهرُ الدَّعَةِ والجلالِ. وكان في التاسعةِ والعشرينَ من عمره، وقد مرت عليه سبعُ سنوات تقريبًا وهو جالس على العرش.

وقد اضْطَجَعْتُ على جَنْبي لأتمكن من رؤيتِهِ، والتَّفَرُّسِ في ملامِحِه، وكان يقتربُ مني أحيانًا فيصبح في متناول يَدِي، فلم يغِبْ عني شيءٌ من دَقائِق ملامحه وشكله. وكان على رأسِه تاجٌ ثمين من الذهب مُحلًّى بالجواهر، وقد حمل في يده سيفَه مُصْلَتًا ليدافِعَ به عن نفسه، إذا حاولتُ قطعَ أغْلالي، أو هممتُ أَن أبطِشَ به. وكان طولُ سيفه نحو ثلاثِ أصابعَ، وغِمْدُه وقَبْضَتُه من الذَّهبِ الْمُرَصَّعِ بالماس.

أما صوتُ الإِمبراطور؛ فَهُوَ ـ على خُفُوتِهِ ـ جَليٌّ واضِحُ النَّبَرَاتِ.

وكانت سَيِّداتُ القصر ورجال حاشيته يرتدون أفخر الثِّيابِ الْمُوشَّاةِ بالحجارة الكريمة. وقد تحدث إليَّ الإمبراطور؛ فلم أُدْرِكْ شيئًا من كلامه، ولكني أجبتُهُ بِلُغَتي؛ فلم يفهمْ ما أقولُ، ولبث الإمبراطورُ وحاشيتُه ساعتين، ثم تركوني وحولي من الحرس عددٌ كبير؛ ليَحُولوا بيني وبين جمهرة الشعبِ الْمُتَزاحِمِ الذي كان يحاول الدُّنُوَّ مني بكل وسيلة.

٢ ـ جَزاءُ الأشرارِ

وَلَمْ يَخْلُ هذا الشعب من فُضولِيِّينَ أشرارٍ؛ فلقد وصَلَتِ الْجُرْأةُ ببعضهم إلى حد أن رشقني بالسِّهام، وقد سدَّد أحدهم سهمًا إلى عينيَ اليُسرى لِيَفْقَأها، فرأى القائدُ الْمُوَكَّلُ بِحِراستي أن يَدْفَعَ عني هذا الأذَى، فألقى القبض على ستة من زُعَماء الأشرار، ولم ير عِقابًا يُكافِئُ جُرْمَهم إلا أن يَشُدَّ وَثاقَهم، ويدفعَهم بين يديَّ؛ لأنكِّلَ بهم جزاء خُبْثِهم ومحاوَلتِهم الفتكَ بي، فأمسكت بهم في يديَ اليمنى، ووضعت خمسة منهم في جيب صِداري، وأدْنَيْتُ السادس من فمي متظاهِرًا بأنني سآكله حَيًّا.

فظلَّ ذلك القَزَمُ المسكين يُرسلُ صَرَخاتٍ مؤلِمَةً، واستولى الجزعُ على القائد وجنودِهِ حين رأَوْني أُخرج من جيبي مُدْيَةً صغيرةً، ثم تبدل

جَزعُهم وخوفهم بِشْرًا وائْتِناسًا حين رأَوْني أقطع الخيوط التي أوثقوه بها، وأضعهُ ـ مُتلطِّفًا ـ فَوْقَ الأرضِ. وما رأى القزَمُ نفسه طليقًا حتى أسرع في فِراره، وهو لا يكاد يُصَدِّق أنه نجا من الهلاك، ثم أخرجتُ

رِفَاقَه من جَيْبِ صِداري ـ واحِدًا بعد آخرَ ـ وفعلتُ بهم ما فعلته بصاحبهم. وقد عطَف عليَّ القائدُ وجنودُهُ ومَن حولَهم من الشعب، وبَدَتْ على وجوههم أماراتُ الحبِّ والتقدير حين رَأَوْا كَرَمَ خُلُقي وتَرَفُّعي عن الانتقام من أعدائي، مع قدرتي على الفتك بهم.

وقد ذَاعَ بين جميعِ السُّكان أنني رجل كريم خَيِّرٌ، وعلم رجال الحاشية ـ بعد قليل ـ بما صنعتُ، فكان لذلك أحسنُ وَقْعٍ في نفوسِهِمْ.

٣ ـ عاقِبَةُ الإِحْسانِ

ولقد تهافت الفُضوليُّون والْكُسالَى على رؤيتي، وجاءوا إليَّ من كل أنحاء الإمبراطورية، وقد ذاع نبأ قدومي في كل مكان، وكادت القُرَى تخلو من ساكِنيها، فَتُعَطَّل الزراعة والصناعة، وتقف حركةُ البيع والشراء؛ فقد وفد الأقزام لرؤية العِمْلاق أو «الجبل الآدَمِيِّ» كما يُسَمُّونه، ولكنَّ جلالةَ الإمبراطور خَشِيَ سُوءَ العاقبة، فأمَرَ بألا يحضُرَ إليَّ أحدٌ إلا بِتَرْخيصٍ، وضريبةٍ يفرِضُها عليه، وقد رَبِحَتِ الحكومةُ من جَرَّاءِ ذلك أمْوالًا طائلةً.

وَفي هذه الأثناء عقد الإمبراطورُ مَجْلِسَ الشُّورَى؛ لينظر فيما يقرِّرُه في أمري، فقد علمْتُ أن الارْتِبَاكَ قد وصل بهم إلى أقصاه؛ فقد كانوا

يخشَوْن أن أقطع أغْلالي فأُصبح طليقًا، وقد رأَوْا ـ إلى ذلك ـ أن غِذَائِي يُكَبِّدهم أموالًا عظيمة، ويتطلب منهم طعامًا كثيرًا، ورُبما سبَّب ذلك مَجاعَـةً في البلاد؛ فقـد لا يَفي غِذاؤُهم كلـه لإِطعامي. ورأَى بعضهم أن يكفُّوا عن تغذيتي حتى أَهْلِكَ جوعًا فيستريحوا من شَـرِّي، وَرأى آخرون أن يمزِّقوا جسـمي بسهامٍ مسـمومةٍ، ولكنهم خشُوا أن يتعفَّنَ جسمي فينشُرَ الوَباءَ في مدينتهم، ثم ينتقلَ إلى جميع أنحاء الإِمْبراطوريَّة فَيُهْلِكَهم جميعًا.

وَإِنَّهم ليتشاوَرون في أمري، وَقد بلغت بهم الْحَيْرَةُ كلَّ مبلغ، إذ دخل عليهم ضابِطانِ، فأفضيا إليهم بما صنعتُهُ مع الأقزامِ السِّـتَّةِ الْمُجْرمينَ؛ فـكان لكلامِهِمَا أحسـنُ وقعٍ في نفس الإِمبراطـور. وَعطفَ عليَّ جميعُ أعضـاءِ المجلـس، وأَلَّفُوا لَجْنَةً ـ في الحال ـ لتفـرض ضرائِبَ على كلِّ قريةٍ مـن القُرى؛ حتى يَحْصُلوا على ما يكفيني من الطعام، ويقدموا إليَّ ـ في كلِّ صباح ـ ستةَ عجولٍ وأربعينَ خَروفًا ومِقدارًا كبيرًا من الْخُضَر والبُقـول والْخُبْـزِ والماء وما إلى ذلك. وقد أمر جلالـةُ الإِمبراطور بأن يُدْفـعَ ثمن ذلك كله مـن خِزانة الدوْلة، وعَيَّنَ سِـتَّمِائة حارس ليقوموا بخدمتـي وَحِراسـتي، وقرَّر لهمْ كل مـا يحتاجون إليه من طعـامٍ، وَقَد نُصِبـت لهم الخِيامُ حـوْل الهيكل الذي قرَّروا أن يكون بيتي وسِـجْني معًا.

٤ ـ لُغَةُ البِلادِ

وَلـم يكتـفِ الإمبراطورُ بذلك كلِّه، فأمر باسْـتِدعاءِ سِـتِّمائة خياطٍ ليصنعوا لي ثوبًا يُشْـبِهُ زيَّ سـاكِني هذه البلاد، واستدعَى ستة من كبار العلمـاء لِيُلَقِّنوني لُغة الأَهْلِينَ؛ حتى يَسْـهُلَ عـلى الإمبراطور والأمراءِ وغيرهـم أن يُبادِلـوني الكلامَ، كما أمر أتباعَه بـأن يُمَرِّنوا جياده وَجياد الأمـراء وَالحرَس على الجـرْي أمامي، حتى تتعـوَّدَ رُؤْيتي بلا خوْفٍ، وَقَد نُفِّذَتْ أوامِرُ الإمبراطور كلها بِدِقَّةٍ تامَّةٍ.

أمَّـا أنا فقد بذلـتُ جهدي في تَفَهُّـمِ هذه اللُّغة الجديدة، وَسـاعدتني ذاكِرَتي القويةُ وَرَغبتي الشديدةُ في تعلُّمِهَا على تفهُّم كثيرٍ من أساليبها في وَقتٍ قصيرٍ، وكان الإمبراطورُ يكثرُ من زيارتي، وَيُوصي بيَ المُدَرِّسـين والحُـرَّاس، وكان أوَّلَ ما تعلمتـهُ أن أُعْرِبَ للإمبراطورِ بتلك اللغة عن شـكري ورَغبتـي في الحُرِّية، وَقد جَثَـوْتُ أمامه على رُكْبَتَـيَّ ضارِعًا إلى جلالته أن يَفُكَّ قُيودي وَيمنحَني حُرِّيَّتي، فقال لي مُبتسمًا:

«عليـكَ بالصبر؛ فليس في قُدْرَتي أن أَبتَّ في ذلك وحْدي؛ فإنَّ ذلك أمـرٌ يعني الدوْلـةَ كلَّها، وَلابدَّ من استشـارة وُزَرائـي في ذلك، بعد أن تُقْسِـمَ أمامي أن تحرصَ عَلَى السَّلْمِ كلَّ الحِرْصِ، وألَّا تمسَّ أحدًا من رَعِيَّتي بسوءٍ».

فأقسمتُ أَمامه: إنني لا أُضْمِرُ إلَّا الخَيْرَ، وَإنني لن أُسِيءَ إلى أحدٍ كائِنًا من كان، وَوَعَدْتُه بأَن أُحْسِنَ مُعامَلَتَهُمْ جَمِيعًا.

فقال لي:

«إنّك ـ إذا فعلتَ ذلك ـ أرضيتني وَأرضيتَ شَعبي، وظفِرْتَ بحُبِّنَا جميعًا، ولكنني علمتُ بأنك تحملُ في جيوبِك قَدْرًا من الأسلحة الخطِرةِ التي تُزَعْزِعُ الأمْنَ في بلادنا؛ فهل تسمح لنا بتفتيشِك؟».

فقلتُ له:

«إنني خاضعٌ لكل ما يأمُرني به جلالةُ الإمبراطور، وإنني مستعدٌّ أن أَنْزِعَ ثوبي أَمَامَهُ، وأن أُخْرِجَ كلَّ ما في جيوبي ليأخذ منه ما شاء».

فقال لي:

«إن قوانينَ الإمبراطورية تَقضي بتفتيشِك، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بعدَ أن نَثِقَ بأن هذا لا يُغْضِبُك، وقد حقَّقْتَ حسن ظني بك، وسأُرسل إليك مُفَتِّشَيْنِ ليفْحَصا عن كُلِّ ما تحمله من الآلاتِ الخطرةِ، وَإني أعِدُك بأن أُرُدَّها إليك يوم تَبْرَحُ بلادي، أو أدفعَ ثمنَها لك كما تقدِّره أنت».

فقلتُ له:

«إنني مُذْعِنٌ لكل ما يأمُرُني به مولاي، وسأعملُ على تحقيقِ كلِّ ما يُرْضِيه».

فابتسمَ لي راضِيًا، وَوَدَّعني شاكرًا مسرورًا.

٥ ـ تَقْرِيرُ الْمُفَتِّشَيْنِ

ولَمَّا جاء الْمُفَتِّشانِ أخذْتُهُما في يدي وَوَضعتهما في جيوبي لِيَرَيا كلَّ ما فيها، وبذلتُ لهما كل ما أرادا من مُساعدة، ولما انتهيا من الفحص، طلبا إليَّ أن أُعِيدَهما إلى الأرض ثانِيَةً، فأنزلتهما ـ مترفِّقًا بهما ـ فشكرا لي، وذهبا إلى الإمبراطور ليبلِّغاه نتيجةَ تفتيشهما الدقيق، وقد رفعا إلى جلالته التقرير الآتي:

«وجدْنا يا صاحبَ الجلالةِ الإمبراطورية ـ بعد أن فحصنا جيوبَ العملاقِ الهائلِ، وفتشناها تفتيشًا دقيقًا ـ ما يلي:

(١) قِطعةَ كبيرةً من النسيج الْخَشِن تصلحُ أن تكون بِساطًا يكفي لفرش حجرة الاستقبال، وهي أكبرُ حجرةٍ في قصر جلالتِكُمْ.

(٢) صُندوقًا كبيرًا من الفِضَّةِ عليه غِطاءٌ فِضِّيٌّ، وقد حاولنا أن نحملَهُ أو نفتحَه، فلم نستطعْ ـ لضخامته وَثِقَلِه ـ فطلبنا إلى العِملاقِ أَن يفتحَه، ثم دخل أَحَدُنا في ذلك الصُّندوق ـ وهو مملوءٌ بتُرابٍ عجيب ـ فغاصَ فيه إلى رُكْبَتَيْهِ، فظلَّ يعْطِسُ ساعتين عطْسًا مُتواليًا! وهبَّ من ذلك الترابِ غُبارٌ قليل في الهواء، فظل الثاني يعطِسُ سبعَ دقائقَ كاملة!

(٣) رِزْمَةً (حُزْمَةً) كبيرةً من النَّسيجِ الأبيض، مَطْوِيَّةً طبقاتُها بعضُها

فوق بعض، وهي في طول ثلاثة رجال منا، وقد شُدَّت إلى سِلسلةٍ ضَخْمةٍ متينةٍ منقوشةٍ عليها طلاسِمُ كثيرةٌ نظُنها كتابةً بِلُغَته التي لا نفهمها.

(٤) عمودَيْنِ أَجْوَفَيْنِ من الحديد، ينتهي كلٌّ منهما بجذِع كبير من الخشب مثبَّتٍ فيه، وفي أَحد طرفيْه قطعٌ كبيرةٌ بارزةٌ من الحديد، وهي أَشبه بنقشٍ لم نهتد إلى فهم معناه، وفي أَسفله حفرةٌ مثبتٌ في جوفها مِسمارٌ ضخمٌ من الحديد.

(٥) كثيرًا من قطعٍ معدِنيةٍ مُستديرةٍ مختلفة الْحُجوم والألوان، بعضها أحمرُ وبعضها أبيضُ، وهي من الفِضة والذهب، ولم نستطعْ أن نحملها مُتعاونَيْن إلَّا بعد عَناءٍ شديد.

(٦) سَيْفَيْنِ كبيرين، حدَّاهما مُرْهَفان، وهما في عُلبةٍ كبيرةٍ.

(٧) سلسلةً ضخْمةً من الفِضَّة، في آخِرِهَا آلةٌ عجيبة مستديرة، نِصْفُها من الفضة، والنصف الآخر من مادة بَرَّاقةٍ تبدو تَحْتَهَا نُقُوشٌ غَرِيبةٌ، وَهِيَ تَلْمَعُ لَمَعانًا عَجِيبًا، وَقَدْ أَدْناهَا العِملاقُ مِنْ آذانِنَا، فسمعنا لها حركة دائِبة تُشْبه صوت الطاحونة أو السَّاقِيَةِ، وهي ـ في ظنِّنا ـ حيوان مجهول، أو لعلَّها ـ إذا لم نكن واهِمَيْنِ ـ هي الإله الذي يعبُده، وهذا ما نُرَجِّحُه؛ لأنه قال لنا ـ وهو يَشرحُ فائدتَها ـ إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من غير أن يستشير هذه الآلة؛ فَهِيَ تُعِينه على أداء كل أعماله، وتُعَيِّنُ له أوقاتَ النَّهار والليل.

(٨) شَبكةً كبيرةً تشبه شِباكَ الصَّيادين، وهي تُفتح وتُقفل، وفيها قِطَعٌ كَثِيفةٌ من الذهب الذي لا يُقَدَّرُ بقيمة.

(٩) آلةً كبيرةً مثبَّتًا فيها كثيرٌ من الأعمدةِ الطويلةِ التي تشبه أعمدة فِناء القصر الإمبراطوري، ونظنها مُشطًا يرجِّل به شَعره.

(١٠) حِزامًا ضخْمًا مصنوعًا من الْجِلْدِ الْغَليظِ، معلَّقًا في ناحيته اليُسْرَى سَيْفٌ يبلغ طولُه طولَ ستةِ رجال منا، وفي ناحيته اليمنى غِرارَةٌ كبيرة مقسومةٌ قِسْمَيْن، يَسَعُ كل قسم منهما ثلاثة رجال منا، وقد مُلِئَ أحدُهما بِكُراتٍ كبيرة، كل كُرةٍ منها في حجم رَأْسِنا تقريبًا، ومُلئَ الآخر بحبوب سُودٍ لا عِدادَ لها، وقد استطعنا أن نحمل في يدنا أكثر من خمسين حَبَّةً منها.

هذا هو تقريرُنا عَمَّا وجدناه في ثِياب هذا العملاقِ الْوَدِيعِ الذي يسَّر علينا عملنا، وأظهر لنا أقْصَى ما يستطيع من التَّوَدُّدِ والتَّلطفِ والاحترامِ.

وقد أمْضَيْنا تقريرنا هذا بعد أن انتهينا من كتابته في اليوم الرابع من القمرِ التاسعِ والثمانينَ من حكم جلالتكم السعيد.

فِليسِن فريلوك، ومارسي فريلوك

٦ ـ بين يَدَيِ الإمبراطورِ

ولَمَّا سَمِعَ الإمبراطورُ تقرير المُفتِّشَيْنِ، جاء إليَّ ومعه ثلاثةُ آلاف جنديٍّ من فُرْسانهِ المُدَرَّبين، وقد أمسكوا بِقِسِيِّهم، وتأهَّبوا لِلْحَرْبِ والنِّضَالِ مُتَرَقِّبين أقلَّ إشارةٍ من الإمبراطور، فلم أعبأْ بهم.

والتفتُّ إلى الإمبراطور، فحيَّاني مبتسمًا متلطفًا، وأمرني أن أُخرجَ سَيفي من غِمْدِهِ ليراه، وكان قد علاه شيء من الصَّدَإِ بعد أن ابْتَلَّ بماء البحر، ولكنه كان ـ بِرَغْم ذلك ـ يَلمعُ في يدي قليلًا. وما إن رأى الأقزام سيفي مُصْلَتًا في يدي حتى علت صرَخاتهم، واشتدَّ صِياحُهُمْ، فأمرني الإمبراطورُ أن أرُدَّ السيف في غِمْدِهِ، وأن أتلطفَ في وَضْعِهِ على الأرضِ، فلبَّيتُ أَمره من فَوْرِي.

ثم طلب إليَّ أن أُرِيَهُ قِطْعَتَي الحديد اللَّتين أشار إليهما المفتِّشان ـ وهو يَعْني بذلك بُندقيَّتي ومُسَدَّسي ـ فقدَّمتُهما إليه وشرحتُ له فائدتهما، وطريقة استعمالهما بقدر ما أستطيعُ من التعبير، ورجوتُ من جلالتِهِ ألَّا يفزَعَ وألا ينزعِجَ، ثم أَرسلتُ طَلْقًا في الهواء؛ فسقطَ الرجالُ على ظُهورِهِمْ من شِدَّةِ الذُّعْرِ، وكأنما سَمِعُوا رَعْدًا قاصِفًا. ولم يَشُذَّ الإمبراطورُ ـ وهو أَقواهم بأسًا وأَثبتهم جَنانًا ـ فقد تملَّكه الفزَعُ، ولم يَعُدْ إلى رُشْدِهِ إلَّا بعد وقت، ثم قدمت إليه بندقيتي ومسدسي وكيسَ البارود، وحذَّرته أَشد التحذير أَن يُدْنيَ هذا الكيس من النَّار

حتى لا يلتهب البارودُ، فينسِفَ قصره ومدينته نسْفًا، فعجب من ذلك أَشدَّ العجبِ.

ولَمّا قدمت إليه ساعتي، دَهِش لرؤيتها أشدَّ الدهَش، وأمر اثنين من جنوده الأقوياء أن يعلِّقاها في عصًا ليسهُلَ عليهما حملُها على كَتِفيهما.

وقد اشتدت دهشةُ الإمبراطور وحَيْرتُه من دَقَّاتِها المتواصلةِ، ومن حركة عَقْرَبِ الدقائقِ، وظل يُنعم النظر فيها، ثُمَّ عرضها على أطِبَّائِه وعلماء بلاده؛ ليُبْدُوا رأيهم فيها، فَحارُوا وتَبايَنَتْ آراؤُهم في تَعْلِيلِها، وضَلَّتْ أَفْهَامُهُمْ في تعرُّفِ حَقِيقَتِهَا، ثم قدَّمت إليْه القِطَعَ الفِضِّيَّةَ والحديديَّةَ التي معي، ووضعت أمامه كِيس نقودي، وبه تِسْعُ قطعٍ ذهبيةٍ كبيرةٍ وبعض قطعٍ أُخرى صغيرة، ولَمَّا انتهى من تفحصها، أعطيتُه مُشْطِي، وعُلْبَةَ سَعوطي، ومِنديلي، وصحيفتي.

وقد حمل جنودُ الإمبراطور سَيفي وبندقيتي وكيس البارود والرَّصاصِ إلى قَلْعَةِ الإمبراطور، ثم تركوا لي ما بَقِي.

وكنت قد وضعتُ ـ في جَيْبٍ خَفيٍّ ـ نظّارتي وبعض أشياءَ صغيرة أُخرى لا فائدةَ للإمبراطور منها، ولا غُنْيَةَ لي عنها، وقد خَشِيتُ عليها التَّلَفَ أو الضَّياعَ، فلم أُنَبِّهِ المُفَتِّشَيْنِ إليها، وادَّخرْتُها لنفسي لتنفعَني في وقتِ الحاجةِ حين أُغادِرُ هذه البلادَ.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

١ ـ نُدَمَاءُ الإِمْبِرَاطُورِ

وأرادَ الإمبراطورُ ـ ذاتَ يوم ـ أن يُرَفِّه عني، ويُمْتِعَ نظري، فيَعْرِضَ أمامي ـ في حفلة أُنْسٍ وابتهاج ـ بعضَ مزايا لهذا الشَّعبِ النشِيطِ الماهر الذي فاق جميع الشعوب التي رأيتها في حِذْقه وذكائه وَجُرأته.

وكان أعجبَ ما رأيته في ذلك الْحَفْل المحتشدِ براعةُ الرَّاقِصِين على الحِبال، وَجُرْأَتُهم النادرةُ؛ فقد رأيتهم يَفْتَنُّون في ضُروب الرقص على خَيْطٍ أبيضَ دقيقٍ طولُه اثنتا عشْرةَ قدمًا وإحدى عشْرة إصْبَعًا.

وعلِمْتُ ـ من عاداتهم وتقاليدهم العجيبة ـ أن الذين يخاطرون بأنفسهم وَيُعَرِّضونها للتَّهْلُكة في أثناء قيامهم بهذه الفروضِ الخَطِرَةِ هم سَراة الأقزامِ وأعيانُهم، وأبناء الأُسر الكريمةِ العريقةِ في المجدِ، وأن هذه الألعابَ الخَطِرَةَ هي وسيلتُهم الوحيدةُ إلى بُلوغِ أرقى مناصب الدولة، والْوُصولِ إلى مُنَادَمَةِ الإمبراطور.

فإذا خلا مَنْصِبٌ كبيرٌ لوفاةِ صاحبِهِ، أو نَقْمَةِ الإمبراطور منْهُ ـ وكثيرًا ما نَقَمَ الإمبراطور من ندمائه لأَتْفَهِ الأسباب ـ تقدَّم للامتحان خمسة أو ستة من الأقزام الذين يُرَشِّحونَ أنفسهم لهذا الْمَنْصِب، ويَرَوْن في

أنفسهم القُدْرَةَ على النجاح، فيستأذِنون من الإمبراطور أن يُهَيِّئَ لهم الفرصة ـ لتسليته هو ورجالُ الْبَلاطِ ـ فإذا أذِنَ لهم، ظَلُّوا يرقصون أمام الإمبراطورِ وحاشِيَتِهِ ـ على تلك الحِبال الدقيقة العالية ـ ويقفِزونَ إلى أعلَى؛ فمن فاقَ أقْرانَهُ في القفز عليها، واستطاع أن يصِل إلى مُسْتَوًى منَ الارتفاع يَعْجِزُ أقرانُه عن بلوغِهِ، فقد فاز بذلك الْمَنْصِبِ العالي الذي تَطْمَحُ إليه نفسُه.

٢ ـ تَكاليفُ العُلَا

وكثيرًا ما أمر الإمبراطورُ كبارَ مُوَظَّفيهِ أن يرْقُصوا ويقفزوا على الحبل ـ مع أولئك المرشَّحين الْجُدُدِ ـ ليطمئنَّ الإمبراطور على أنهم لَمَّا يفقِدوا كَفاياتِهم ومزاياهم الباهرةَ التي أكسبتهم ـ من قبلُ ـ مناصِبَهم الرفيعةَ.

ولقد لَقِيَ حَتْفَه كبيرُ صَيارِفَةِ الإمبراطورية، وراح شهيدَ مَهارته وجُرأته، وكان يستطيعُ أن يقفز إلى ارتفاع إصْبَعٍ فوق الحبل. وهو أقصَى ارتفاع وصل إليه أكبر موظَّف في الإمبراطورية، ولم يَصِلْ غيرُه إلى مثلِ هذا الارتفاعِ من قبلُ، وقد رأيتهُ بنفسي وهو يقفزُ على الحبل الدقيق تلك القَفْزَةَ الخَطِرَةَ التي عرَّضته للهلاك والتَّلفِ. وقَلَّمَا خَلَتِ التَّمْرِينَاتُ من حَوادِثَ مَشْئُومَةٍ، وقَدْ أَثْبَتَ أَكْثَرَهَا سِجِلُّ الإمبراطوريةِ.

٣ ـ شُهَدَاءُ الْمَجْدِ

وقد رأيتُ بعيْنَيَّ ثلاثةً من هؤلاء الْمُرشَّحين هَوَوْا إلى الأرضِ، فكُسِرَتْ أرجلُهُم، وقضَوْا بقية حياتهم مُقْعَدِينَ!

وكان أخوفَ ما يَتَخَوَّفون منه أن يأمرَ الإمبراطورُ وزراءَه أنفسهم بأن يُبَرْهِنُوا أمامه ـ مرَّةً جديدةً ـ على كِفايتهم ومهارتهم، وثَمَّةَ لا يدَّخِرون جُهدًا في الْفَوْقِ على غيرِهِمْ من النُّدماء، وربما سقطوا إلى الأرض من ارتفاعٍ شاهِقٍ، وعرَّضوا أنفسهم لأخطارٍ جسيمةٍ.

وقد علمتُ أن أحدَ هؤلاء النُّدماء هَوَى منذُ عام وهو يقفز على الحبل، وكان لابُدَّ من تحطُّم رأسِه، لولا أنه سقط على إحدى وَسائِدِ الإمبراطور، فنَجا بذلك من موتٍ محقَّق.

وَثَمَّةَ نوعٌ آخَرُ من الألعاب التي يَبْهَجُ الإمبراطورُ بها نفسَه، وهو وَقْفٌ على الإمبراطور والإمبراطورة والوزراء، وذلك أن يضع الإمبراطور فوق مائدته ثلاثةَ خُيوطٍ من الحرير ـ غايةً في الدِّقَّةِ ـ طولها ستُّ أصابعَ، أوَّلها قِرْمِزِيٌّ، وثانيها أصفرُ، وثالثها أبيضُ، وهذه الخيوط الثلاثة هي جوائز يمنحها الإمبراطور من يَمْتازُ على غيره بالمهارة والْجُرأة.

فإذا بدأت الحفلة ـ في قاعَةِ الاستقبال الكبيرة بالقصر الإمبراطوري ـ ظَلَّ المُتَبَارُونَ يَفْتَنُّون في شَتَّى ضُروبِ القفز والرقص بمهارة لم أَرَ لها مثيلًا في أيِّ شعب عرَفتُه في كل أسفارِي ورِحْلاتي الكثيرة السَّابِقَةِ.

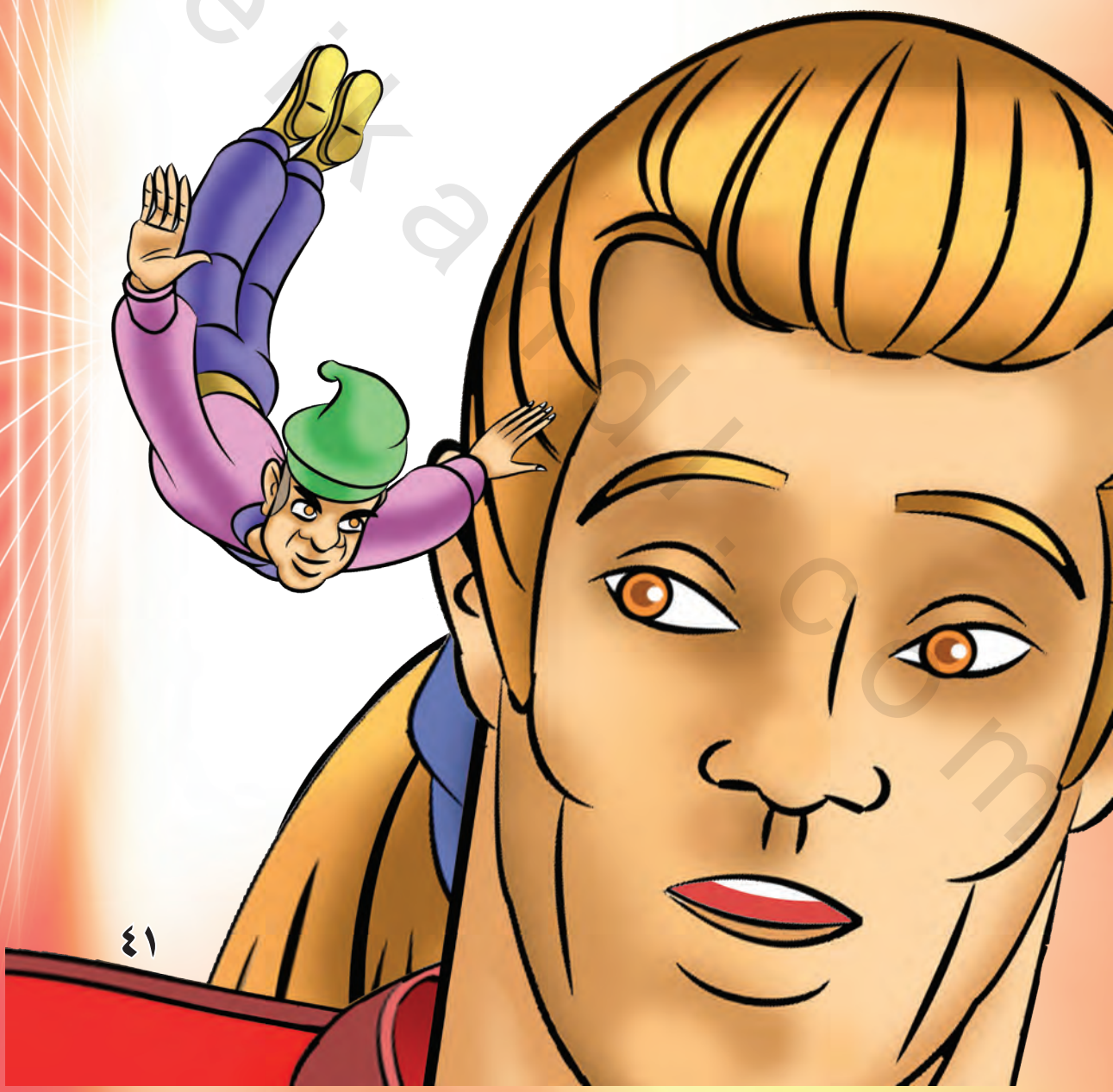

٤ ـ أَنْوَاطُ الجَدَارَةِ

وَكَانَ الإِمْبَرَاطُورُ ـ في بَعْضِ أَسْمَارِه ـ يَأْخُذُ بِطَرَفَيْ عَصَوَيْنِ مُتَوَازِيَتَيْنِ في الفَضَاءِ، وَيُمْسِكُ رَئِيسُ وُزَرَائِه بِالطَّرَفَيْنِ الآخَرَيْنِ، ثُمَّ يَقْفِزُ عَلَيْهِمَا الْمُتَبَارُونَ، وَلَهُمْ في هَذِهِ اللُّعْبَة أَفَانينُ شَتَّى، وَهِيَ تَنْتَهِي بِمُكَافَأَةِ الفائز الأَوَّلِ بِالْخَيْطِ القِرْمِزِيِّ، وَالفَائِز الثاني بِالْخَيْط الأصفَرِ، والفَائز الثالث بالخَيْط الأَبْيَض.

وَهَذِهِ الخُيُوطُ هي أَوْسِمَةُ المَجْدِ وَالْفَخْرِ في تِلْكَ البِلَادِ، ويتخذون منها حَمَائِلَ سُيوفهم، أَوْ يَجْعَلُونَهَا زِينةً لَهُمْ، وَإِشْعَارًا لِلعَامَّة بِمَا أَحْرَزُوهُ من أَنْواطِ الجَدَارَة وشاراتِ المَجْدِ.

٥ ـ بَيْنَ ساقَيْ «جَلِفَر»

وَفي ذَاتِ يَوْمٍ فَكَّرَ الإمبراطورُ في وَسيلةٍ فَذَّة لِلتَّسْلِيَةِ، فَحَشَدَ فَيْلَقًا كَبيرًا مِنْ جَيْشِهِ، وأمرني أنْ أَقِفَ فَارِجًا سَاقَيَّ بِقَدْرِ مَا أستطيعُ، ثُمَّ أَمَرَ جَيْشَه أَنْ يَمُرَّ من فُرْجَةِ سَاقَيَّ لِيَعْرِضَهُ أَمَامَه، فمرُّوا صُفُوفًا، في كُل صَفٍّ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُون راجِلًا، تَلِيهَا صُفُوفُ الفُرْسَانِ، في كُل صفٍّ مِنْهَا سِتَّةَ عَشَرَ فارِسًا، ثُمَّ تَبِعها رِجالُ الْمُوسِيقَى، فَحَامِلو الأَعْلامِ الخَفَّاقة؛ فحامِلُو الأَسِنَّةِ وَالْحِرَابِ المرفوعة.

وَكَانَ ذَلِكَ الجَيْشُ مُكَوَّنًا مِنْ ثَلاثَةِ آلافِ رجلٍ وَأَلْفِ فَارِسٍ.

وَقَدْ أَمَرَهُمُ الإمبراطور أن يَلْزَموا جادَّةَ الأَدَب، وأَلَّا تَبْدُوَ مِنْهُمْ ـ في أَثْنَاءِ سَيْرِهم ـ أَيَّةُ إِشَارةٍ تَدُلُّ عَلى السُّخْرِيَةِ، فَإِذَا خَالَفَ أَحَدُهُمْ أَمْرَ الإِمْبِرَاطور كانَ جَزاؤُهُ الْقَتْلَ.

وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الأوامِرُ الصَّارِمَةُ لِتَمْنَعَ بعضَ الجُنودِ وَالضباط الفُضولِيِّينَ مِنْ أَنْ يَرْفعوا أبصارهم إليَّ ـ وَهُمْ يَمرُّون مِنْ فُرْجَةِ سَاقَيَّ ـ وَيَضْحَكوا ساخِرين أو مَدْهُوشين.

٦ ـ قُيُودُ الْحُرِّيَّةِ

وبعد انتهاء هذه الحفلة، أرسلت عدة مُذَكِّرَاتٍ أَلْتَمِسُ بِهَا حُرِّيَّتِي، وَقَدْ حَوَّلَهَا الإِمْبِرَاطُورُ على مَجْلس الشورى ومجلس الوزراء، فوافقوا على ذلك كلُّهم، وَلَمْ يَشُذَّ عَنْهم إلا وزيرُ الحَرْب، فقد عارض أشدَّ الْمعارضة في أَن أُمْنَحَ الحريةَ.

وَكَان هَذَا الوزيرُ ـ لسوء حظي ـ محبوبًا من الإمبراطور مُتَمَتِّعًا بثقته ـ لمهارته وكِفَايتِه في الفنونِ الحربيةِ ـ وإن كان ضَيِّقَ الفِكرِ في شئون الحياة والاجتماعِ. وقد طلب ذلك الوزيرُ من الإمبراطورِ أَنْ يَضَعَ بنفسِهِ الشروطَ التي يراها ضروريةً لإطلاق سراحي، فأجابه الإمبراطور إِلَى طِلْبَتِهِ.

وَقَـد أَتَمَّ الوزيرُ وَضْعَ هذه القُيودِ الثقيلةِ مُؤيَّدةً بالعهودِ والمواثيقِ، حتى يأمنوا جانبي حين أَظْفَرُ بحريتي. وكان مع الوزير كثيرٌ من سَـراةِ الأَقـزام وأعيانِهـم، وَقـد طَلَبُـوا إليَّ أَنْ أُقْسِـمَ أمامهم إنني لَـنْ أُخْلِفَ وَعْدًا، وَلَنْ أَنْكُثَ عَهْدًا، وَلَنْ أُخِلَّ بِشـرطٍ مِنْ هذه الشـروط كلِّها، إذا فَكُّـوا عَنـي قيودي، وأطلقوا لي حريتي؛ فَأَقْسـمتُ أَمَامهم إني سَـأُنَفِّذُ كل شـروطهم بدقَّـةٍ وأمانـةٍ؛ فلـم يكتفوا بهذا القَسَـمِ، وطلبـوا إليَّ أَنْ أقطع على نَفْسِي عهدًا وثيقًا بذلك على طريقة بلادهم في إعطاء العهود والمواثيـق، ورسـموا ليَ الخُطَّةَ التـي أَتْبَعُها في إِقْناعِهِمْ بِحسـن نِيَّتِي، وَإذعاني لأمرهم.

وكانت طريقتهم في أخذ العهُودِ والْمَوَاثيقِ عَجِيبَةً حَقًّا؛ فقد أَمَرُوني أَن أَقبِـضَ عَـلَى إبهامِ رِجْـلِيَ اليُمْنَى بيَدِيَ اليسـرى، ثم أَضَـعَ الإِصْبَعَ الوُسْـطَى ـ مِـنْ يَـدِيَ الْيمنى ـ فوق رأسـي، والإِبهامَ على طـرف أُذُنِيَ الْيُمْنَى؛ فَلَم أَتَردَّدْ في تَلْبِيَةِ كُلِّ مَا طَلَبُوهُ مِنِّي.

٧ ـ فِرارُ الإِمْبِرَاطُورِ

وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ ذلك القَرارِ الذي أَعْطَوْنِيهِ، وَإِلَى القارئ نصَّه:

«نحـن جولباسـتو إمبراطـور «ليليبـوت» ـ أعظـمُ وأقـوى الناس، وملاذُ اللَّاجِئِينَ، ومُرْهِبُ الأَعْـدَاءِ، وأقوى ملوكِ الدُّنْيَا، وَالَّذِي يَمْتَدُّ

ملكه ستةَ أَمْيَالٍ مستديرةٍ إلى أَطْرافِ الكرةِ الأرضيـة: ملك الملوك، وأعظـم العظماء، وَجبّارُ الجبابرة، الذي تـكاد قَدَمَاه تَخْرِقَانِ الأرض من ثِقَلِهِمَا عليْهَا، ويكادُ رَأْسُـه يلْمِسُ الشمسَ لِطُولِ قامَتِهِ وَارْتِفَاعِهَا، والذي تَرْجُفُ مِنْه الملوكُ إذا رَأَتْهُ، وَالَّذِي يُقَدِّسُهُ شَعْبُه؛ لأَنَّهُ محبوبٌ كَالرَّبيعِ، لَطِيفٌ كالصيف، مُخْصِبٌ كالخريف، مَرْهُوبٌ كَالشتاء، سِلْمٌ لِلأَوْلياء، حَرْبٌ عَلى الأعداء ـ فَرَضْنَا على ضَيْفِنَا العِمْلاقِ مَا يَأْتي:

(١) أَلَّا يَخْرُجَ بَتاتًا من أرضنا الفسيحةِ من غيرِ إذنٍ منا مختومٍ بخاتَمِنَا الكَبيرِ.

(٢) أَلَّا يَدْخُلَ عاصمِتَنَا الآهِلَةَ بِالسُّكَّانِ من غير أَن يُنْذِرَ الأهالي بذلك قبل ساعتين من دخولِهِ العاصمةَ؛ لِيَلْزَمُوا مَساكِنَهم.

(٣) أَنْ يَقْصُرَ تَنَزُّهَهُ وَسَيْرَه على طُرُقِنا الفسيحةِ الكبرى، وألَّا يَجُولَ أو ينامَ في أي حَقْلٍ مَزْرُوعٍ؛ حتى لا يُتْلِفَ مَا فيهِ من حَرْثٍ.

(٤) أَنْ يَحْـرِصَ كُلَّ الحِـرْص عـلى أَلَّا يَطَـأَ بِقَدَمِـهِ جِسْـمَ أَيِّ فرد من رعايانا، أو خَيْلهم أو عَرَبَاتِهم في أثناءِ سَيْره في طريقه، وألَّا يُمْسِكَ بيَدِهِ أيَّ إِنْسَان مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ ورِضَاه.

(٥) أَنْ يَحْمِـلَ البَرِيدَ وَيُوصِلَه إلى المسـافاتِ البَعِيـدَةِ، كُلَّمَا طَلَبْنَا إليْه ذَلِـكَ، وأن يَقُـومَ بِهَـذَا العمـل سـتةَ أَيَّـامٍ في كُل قَمَرٍ (شـهْرٍ) مِنَ الأَقْمَارِ.

(٦) أَنْ يُحَالِفَنَا، وَيَكُونَ عَوْنًا لَنَا عَلَى أَعْدَائنا الذين يقطنون بجزيرة «بليفُسكو»، وَأَلَّا يدَّخِرَ وُسْعًا في تَدْمير أُسْطُولِهِمُ الذي يُعِدُّونه الآن لِغَزْوِ بلادِنا.

(٧) أَنْ يُعِينَ عُمَّالَنَا وَيُسَاعِدَهم ـ في أَوْقَات فَراغه ـ على حَمْلِ بعض الأحجار الضَّخْمَة التي يبنون بها أسوارَ حَدِيقَتِنَا الكبرى، وَجُدْرَانَ دُورِنَا الحُكومية.

(٨) أَنْ يُقَدَّمَ لَهُ ما يَكْفيهِ من الغِذَاءِ ـ بعد أَن يُقْسِمَ عَلَى احْتِرَامِ هذا الدستورِ ـ وأن يَكُونَ غِذَاؤه في كُلِّ يوْمٍ مِقْدَارًا مِن اللَّحْمِ والسمك يكفي لإِطْعَامِ أَلفٍ وَثَمَانِمِائَةٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعَةٍ مِنْ أَفْرَادِ رَعِيَّتِنَا، وَأَنْ يَكُونَ حُرًّا في مُقَابَلَةِ شخصنا الإِمْبِرَاطُورِي، وَأَنْ يُمْنَحَ مَا نَشَاءُ من الْمِنَحِ.

صَدر هذا القرار ـ عَنْ قَصْرِنا ـ في اليوم الثاني عَشَرَ مِن القمرِ الواحِدِ وَالتِّسْعِينَ من حكمِنَا».

٨ ـ حُرِّيَّةُ «جِلفَر»

وَمَا إِنْ أَتْمَمْتُ القَسَمَ، وَأَمْضَيْتُ هذه الشُّرُوطَ ـ وَأَنَا مَسْرُورٌ بِالظَّفَرِ الوَشِيكِ بحرِّيَّتِي، بِرَغْمِ ثِقَلِ هَذِهِ القيود ـ حتى فَكُّوا سَلاسِلي وَأَغْلالي، وأصبحتُ مُنْذ تلك الساعة حُرًّا طَلِيقًا.

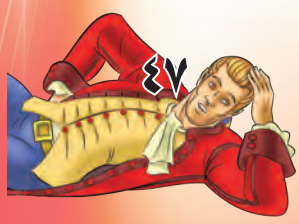

وَقَـدْ جَاءَ الإِمْبِرَاطُورُ نَفْسُـهُ، وَتَلطَّـف بي، وهنَّأَني بحريتي؛ فركعت أَمَامَه ضَارِعًا شَاكِرًا، فَرَجَا مني ـ متلطفًا ـ أَنْ أَقِفَ، فَأَذْعَنْتُ وَشَكَرْتُ لَهُ عَطْفَهُ الذي غَمَرَني بِهِ.

وَلَعَـلَّ أَعْجَـبَ مَـا أَدْهشـني من تلك الشُّـرُوطِ ـ التـي وضعوها في ذلك الدُّسْـتُورِ الذي أَمْضَيْتُهُ ـ أَنَّهُمْ أَمَروا لي بطعامٍ يكفي لتغذية أَرْبَعَةٍ وَسَبْعِين وثَمَانِمِائةٍ وَأَلْفِ فَردٍ منهم.

وَقَـدْ سَـأَلْتُ صَدِيقًـا مِـنْ خُلَصَائِـي الَّذِيـنَ اصْطَفَيْتُهُمْ مِـن هَؤُلاءِ الأقزام:

كيف عَرَفوا أَن هذا القَدْرَ بعينه من الطعام يَسُدُّ حَاجَتِي من الغِذَاء؟

فَقَال لي:

«إن عُلَمَاءَ الرِّيَاضَةِ قَدْ قَاسُوا قَامَتِي إِلَى قَامَاتِهِمْ، وَحَسَبُوا ضَخَامَتَها، فَوَجَدُوا أَن نِسْبَةَ حَجْمِي إِلَى أَحْجَامِهِمْ كَنِسْبَةِ أَلْفٍ وَثمانِمِائة وسبعين وأَرْبَعَـةٍ إلى واحِدٍ؛ فَقَـدَّرُوا أَن الغذاءَ الذي يكفي هذا العددَ مِن الناس يكفيني وَحْدِي!».

وَمن هذا يتبينُ القارئُ بَرَاعَةَ هؤلاء الأقزامِ، وسَعَةَ عِلْمِهِمْ، وَحُسْنَ تَصرُّفِهم، ودِقَّةَ حِسَابِهِمْ وتَقْدِيرِهِمْ.

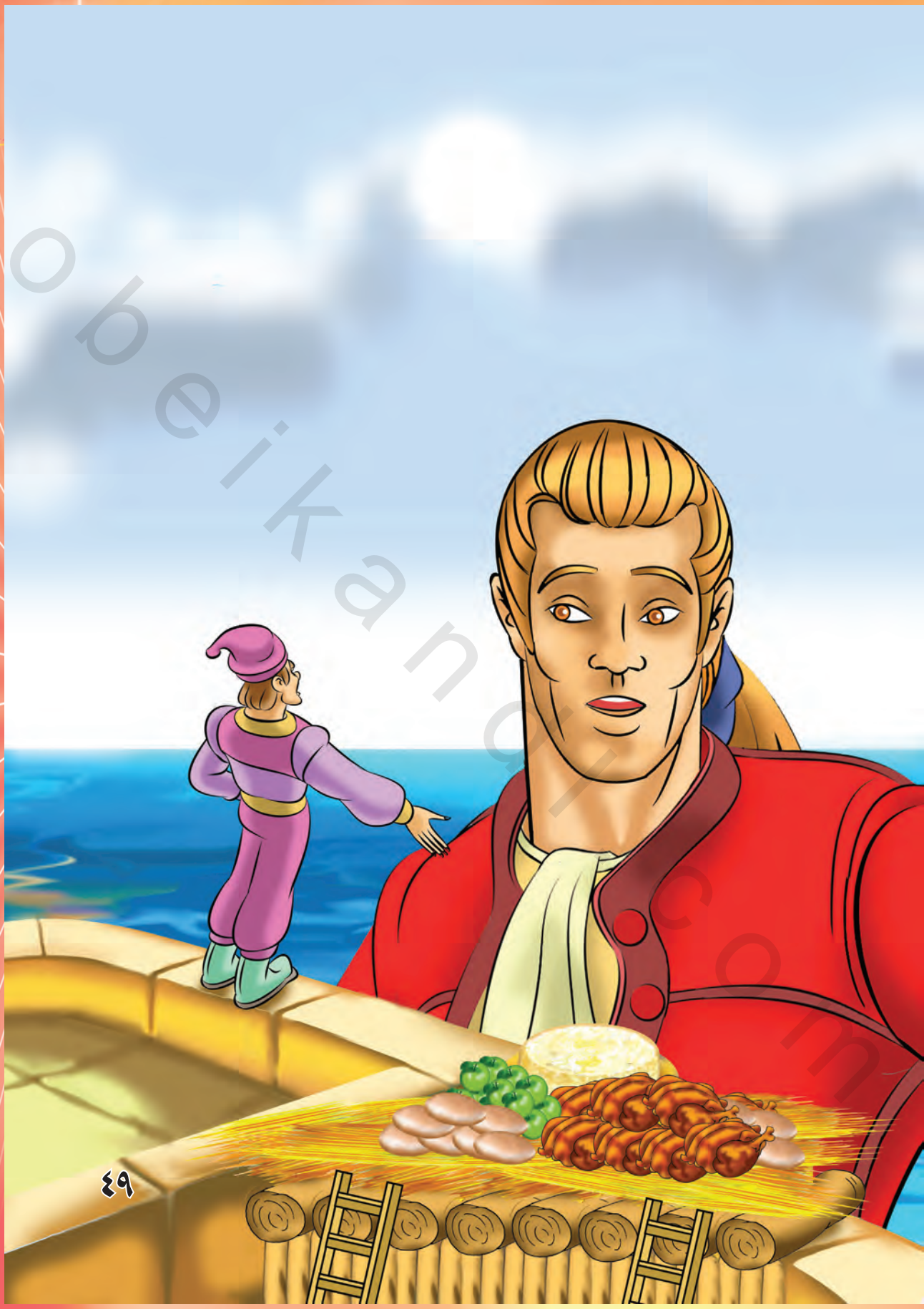

obeikandl.com

الفَصْلُ الرَّابِعُ

١ ـ عَاصِمَةُ «لِيلِيبوت»

كَانَ أَولَ مَا طَمَحَتْ نفسي إلى رؤيته ـ بعد أَنْ ظَفِرْتُ بحريتي ـ هُو أَن أَرى «ميلوند» قَصَبَةَ إِمْبِراطورية «ليليبوت». وما كَاشَفْتُ الإِمْبراطورَ بِهَذِهِ الرَّغْبة حتى أَجابني إِليها ـ بلا تردُّد ـ بعد أَنْ أَوْصَاني باليقَظَة وَالانْتِبَاه في أَثْنَاء سَيْرِي في تِلْكَ العاصمةِ؛ حتى لا أَطَأَ بقدَمِي فَردًا مِن أَفرادِ شَعْبِهِ، أَو مسكنًا مِنْ مَسَاكِنِهِمُ الصغيرةِ؛ فوعدْتُه بِتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ، وتنفيذِ أَوامرِهِ، وَفْقَ مَا يُريدُ، فأَمر جَلالته أَن يُذاعَ في مَدِينتِهِ نبأُ زيارتي؛ حتى يَلْزَمَ أَهْلُوهَا بُيوتَهُمْ.

وكان ارتفاعُ السُّورِ الْمُحيط بالمدينةِ قدمين ونصفَ قَدم، وَسُمْكُهُ إِحْدَى عَشْرةَ إِصْبعًا؛ فَكَان من اليسير على أَيِّ عربة مِن عرباتها أن تسير فوق هذا السور المحيط بالمدينة، من غير أَنْ تتعرضَ للخطرِ، وقد شيَّدوا على هذا السور الضَّخْم عِدَّةَ بُروجٍ متينةِ البناءِ، بين كل بُرْجَين منها عَشْرة أَقْدَامٍ.

٢ ـ في شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ

وَمَا وَصَلْتُ إِلى الباب الغربيِّ حتى مررت من فوْقِه، ثُمَّ ظَلِلْتُ أَجولُ في الشَّارعين الكبيرين، وأَنَا شَدِيد الحذر والانتباه؛ حَتَّى لا أطَأ بقدمَيَّ أَحَـدًا مِن الأقـزام الَّذِين دَفَعهم الفُضُـولُ إِلَى الخروجِ مِنْ مساكنهم، ومُخَالَفـةِ أَمْـر الإِمْبِرَاطور، بعـد أن حذَّرَهُمْ عَواقِـبَ الخُروج في أثناء تَجْوالي بِالْمَدِينة.

وَكُنْتُ أُنْعِمُ النظرَ فيما يحيطُ بي، وَأُقدِّر كل خُطْوة أَخْطوها حتى لا يَمَسَّ جسدي أو ملابسي نَافِذَةً مِنْ نوافِذِ مَنَازِلهم، فتهوِيَ ـ بِمَن عليها ـ إِلَى الأَرْض.

وكَانَتْ نَوافِذُ الْمَنَازل غاصَّةً بِالناس الذين كانوا يَرْقُبون رؤيتي منذ زمن طويل بشـوق شـديد، وكانت سُـطوحُ البُيوت التي مَررت عليها مُزْدَحِمَةً، لا تَكَادُ تَجِدُ فيهَا مَنْفَذًا مِنْ شِدَّةِ الزِّحَام. وقد أيقنتُ ـ حِينئذ ـ أن سُكَّان تِلْكَ الْمَدِينَةِ الكبيرة لا يقلون عن خَمْسِمائة ألف نَسَمَةٍ.

وَرَأَيْـتُ مِنْ هَنْدَسَـةِ المدينة ـ في شـوارِعِهَا وَبُيُوتِهَـا وَقُصورِهَا ـ مَا أَدْهَشَـنِي؛ فَقَـدْ بُنِيَتِ الْمَدِينَـةُ عَلَى رُقْعَةٍ مِنَ الأَرْضِ على شـكل مربع، طولُ كل ضلعٍ من أَضْلاعِه خَمْسُمِائَة قدم. وكان يخترقُ المدينةَ ـ كما قلتُ ـ شـارعان كبيران يتقاطعان في منتصَفِها؛ فيقسمان المدينةَ أربعةَ

أحياءٍ مُتساويةً. وكان عَرْضُ كلِّ شارعٍ منها خمْس أقدام. وفي المدينة ـ غير ذلك ـ شـوارعُ كثيـرة لا تحصى، وهي طُرُقٌ صغيرة لم أَسـتطعْ أن أمُرَّ بها لضيقها؛ فقد كان عَرْضُها من اثنتي عشْـرةَ إصْبَعًا إلى ثمانِيَ عَشْـرَةَ إصْبَعًـا. وكانَتْ منازلُ المدينة مؤلَّفةً مـن ثلاث طِباقٍ أو أربع. وفيها كثير من الدَّكاكينِ والأسْوَاقِ المنظَّمة، وبها مَسْرَحٌ للأُوبرا وآخَرُ للكومِيدْيا.

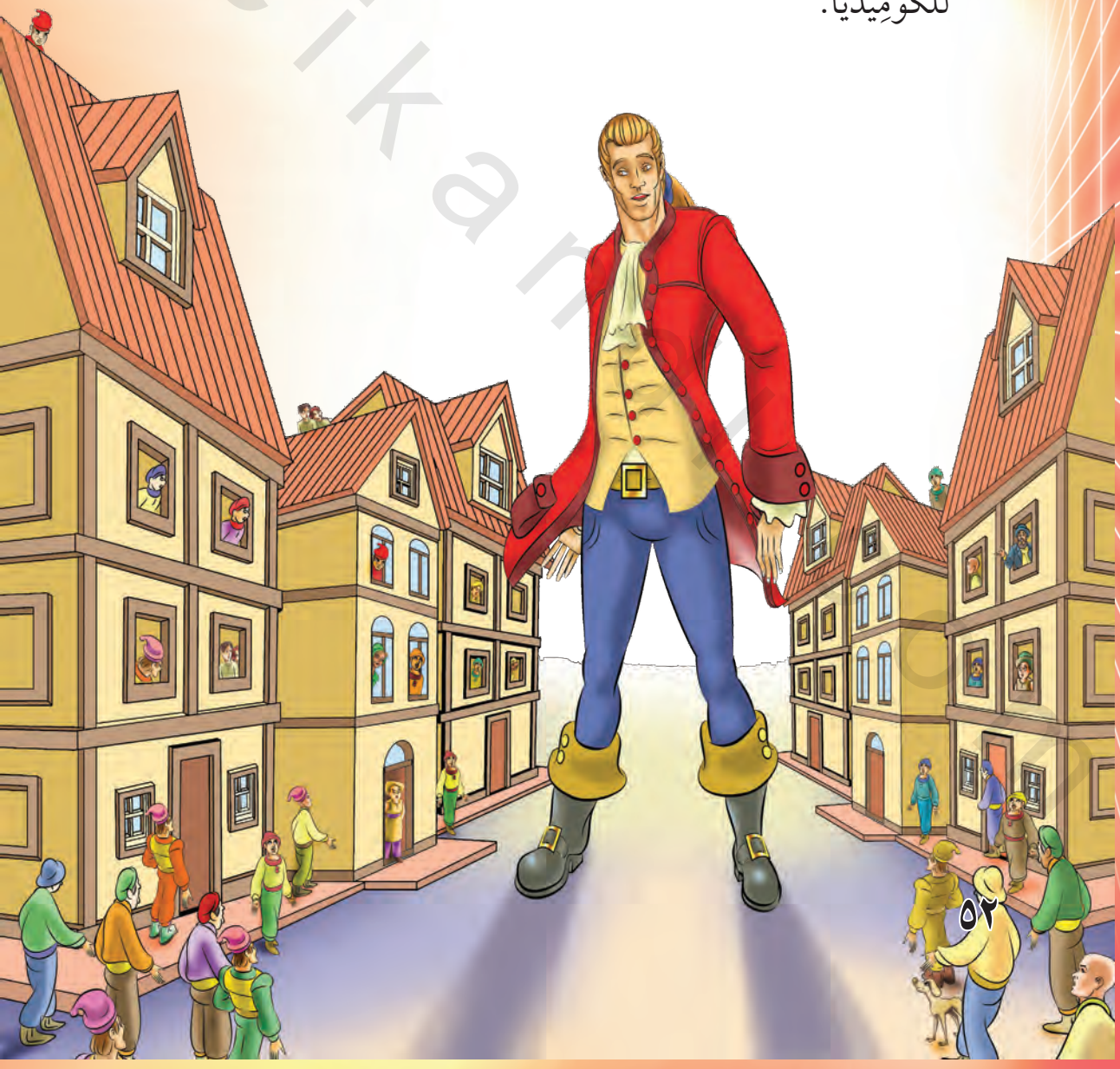

٣ ـ قَصْرُ الإِمبراطورِ

وكان قصرُ الإِمبراطور يَتوسَّط المدينةَ؛ حيث يلْتقي الشارعان الكبيران، وهو أفخم بِناءٍ في تلك البلاد، يَكْتَنِفُهُ سُورٌ ارتفاعه ثلاثٌ وعشرون إصْبَعًا، وهو يَبْتعِدُ عِشرين قدمًا عن بناء ذلك القصر. وقد أَذِنَ لي جلالة الإمبراطور أن أَمرَّ من فوقِ هذا السُّورِ حتَّى أَشهَدَ قصره من جميع نَواحِيه، وكان الفِناءُ الخارجيُّ على شكل مُربَّع ضِلْعُهُ أربعون قدمًا، وهو يحتوي فِناءَيْن آخريْن، في ثانيهما غُرَفُ جلالة الإِمبراطور. وقد أعجبني حُسْنُ نظامِها وتَنْسيقُها.

ولم يكن مِنَ اليسير عليَّ أن أراها؛ فقد تكبَّدْتُ ـ في سبيل رؤيتها ـ كثيرًا من العَناء؛ لأن أكبرَ بابٍ فيها لا يَزيدُ ارتفاعه على ثمانِيَ عشرة إصْبَعًا، ولا يزيدُ عرضه على سَبْعِ أَصابعَ. وكان ارتفاع جِدار الفِناء الخارجي نحو خمس أقدام. وكان من المُحال أنْ أعْلُوَ أي جِدار من هذه الْجُدُر حتى لا أُحَطِّمَه؛ فقد كان سُمْكُ السُّورِ أربَعَ أصابعَ؛ على أن الإِمبراطور كان شديد الرغبة في أن أرى فخامة قصره، ولم يكن لي إلى تحقيق رغبته من سبيلٍ إلا بعد ثلاثة أيامٍ ظَلِلْتُ أعمل ـ خِلالَها ـ في قَطْعِ بعض أشجار الحديقة الإِمبراطورية، وهي على مسافة مائة ذِرَاعٍ من المدينة، وقد استطعت أَن أَصنع من هذه الأشجار كُرْسِيَّيْن

من الخشـب، ارتفاع كلٍّ منهما ثلاث أقدام، وقد جعلتُ كليهما متين الصُّنْعِ، حتى يَتَحَمَّلَ ثِقْلَ جِسْمي من غير أن يتحطَّم.

٤ ـ أُسْرَةُ الإِمبراطور

وفي اليـوم الرابع صدر أمـر الإمبراطور بتحذير شَـعبِه الخروجَ من بُيوتهم؛ حتى لا يعرِّضوا أنفسَـهم للهلاك، ثم عُدت إلى المدينة ومعيَ الكُرسِـيَّان، وما زِلتُ سـائرًا في طريقي إلى القصـر الإمبراطورِيِّ، وأنا أتخطَّـى المنازلَ والبيـوتَ التي في طريقـي حتى بلغتُ القصـر. ولَمَّا وصلـتُ إلى فِنائـه الخارجيِّ صَعِدْتُ إلى أحد الكُرسِـيَّيْنِ، وأمسـكتُ بالثـاني في يـدي ووضعتـه فـوق سـطح القصر، ثـم قفـزْت في الفَضاء ـ الذي بين بُرْجَيِ القصر ـ قَفْزةً شديدةً، فنزَلت إلى الأرض دون أن أَمَسَّ القصرَ بِسُوءٍ، وكان عَرْض الفضاء الذي بين البُرْجَيْن ثمانيَ أقدام.

وقـد كان من اليسـير عليَّ ـ بعد ذلـك ـ أن أتخطَّى أعـلَى الأَبْنِيَةِ بعد أن صنعتُ الكرسِـيَّيْنِ؛ فقد كنت أصعد على الكُرسِـيِّ الأول، ثم أضعُ الثـانيَ فوق القصر، وأقفِـز بخِفة ـ فوق الهواء ـ إلى الجهة الأخرى، ثم أجذِبُ الكُرْسِيَّ الأول بشصٍّ أعددته لهذا الغرض، وهكذا سَهَّلَ عليَّ هـذا الاخْتِـراعُ أنْ أَصِـلَ إلى الفِناء الداخـلي؛ حيث رقـدْتُ على جَنْبي لأرى نوافِذَ الطَّبقة الأَولى التي تركوها مفتوحة؛ ليتسـنَّى لي رؤيةُ ما في

داخلها. وقد رأَيتُ أَبدع نظام وأَكمل ترتيب وصل إليهما عقلٌ مفكرٌ، ورأَيت الإمبراطورةَ وبناتِها الأميراتِ الصغيراتِ وهنَّ في غُرَفِهِنَّ ـ ومن حولهنَّ الخدم ـ وقد ابْتَسَمْنَ لي ابتسامة الإعجاب والسرور برؤيتي، وسلَّمَتْ عليَّ الإمبراطورةُ سلامَ المُرَحِّبِ الْمُبتهج بزيارتي.

وليس في استطاعتي أَن أَصف لك كل ما رأَيته في ذلك القصر العظيم من البدائِع والطُّرَفِ؛ فإِن ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ ضَخْمٍ يَصِفُ هذه البلاد ويشرحُ تاريخها ـ منذ نشأتها قبل عدة قرون ـ ويبيِّن نباتَها وحيوانَها وأخلاق أهلها وعاداتِهم، وما إِلى ذلك مما تَحْويه تلك البلادُ من الغَرائبِ والْمُدْهِشات.

وقد أَقَمْتُ فيها تسعة أشهر، كانت كافيةً لدرس الكثيرِ من خصائصِ هذا الشعب النادرِ في ذكائِه ونشاطِه.

٥ ـ المُنَازَعَاتُ الداخليةُ

وبعد خمسة عَشَرَ يومًا من حصولي على حريتي، جاءني «سكرتيرُ» وِزارة الخارجية ـ ومعه خادمه ـ وطلب أن يُسِرَّ إليَّ بحديث مهم، فأردت أن أرقدَ على الأرضِ ليَكونَ في مستوى أذني فيسهُلَ عليَّ سماعُ حديثه، ولكنه آثر أن أحمله بيدي إبَّانَ هذا الحديث، وقد بدأ حديثه بتهنئتِي بِنَيْلِ حريتي، ثم قال لي:

«إنني لأَخْجل يا سيدي أن أذكر لك أني كنت من العامِلين علَى ظَفَرِك بِحُرِّيَّتِك؛ فلا يتسَـرَّبْ إلى ذِهْنِك أنني أَمْتَنُّ عليك بهذا الْجُهْدِ الضَّئيل الذي بذلتُه في سبيلك؛ على أنني أعتقد أنه لا فَضْلَ لأحد عليك، فلولا أن الدولة في حاجةٍ شديدةٍ إلى قُوَّتك وجهودِك، ولولا أنهم يعلِّقون بِكَ أكبر الآمالِ، لما أطلقوا لك حريتك بمثل هذه السـرعةِ، ونحن كبيرو الثقـةِ في كَرَمِـكَ وإخلاصك، وعملك على إنقاذنا مـن أخطارٍ نَأْمُلُ أن تُوفَّقَ ـ بفَضْلِ قُوَّتِكَ وشَجَاعتِك ـ إلى القضاء عليها».

فأظهرتُ له أنني مستعدٌّ أَتمَّ الاستعداد لتلْبيَـةِ كل ما يأمرونني به، وأنني لا أَدَّخِرُ وُسعًا في خدمـة الدولةِ، وتحقيـق رغَباتِها وآمالها، ثم سألتُ عما يُريده مني، فقال:

«إن بلادَنـا قـد أَصْبَحَتْ ـ لنشـاط أهلها وذكائهم ـ مـن أَجْمَلِ بلاد العالم وأَنْضَرِهَا، ولكنها لَمْ تَخْلُ ـ على ذلك ـ من مُنازَعاتٍ وانْقسامات داخلية، وأَخطار خارجية، وهاتانِ العِلَّتان هما مصدر قلقنا وانزعاجنا جميعًا؛ فقد نشأ في بلادنا ـ منذ سبعين قَمَرًا ـ حِزْبان متعارِضان: حزب «الترامكسان» وحزب «السلامكسـان»، ومعنى اللفظة الأولى: حزب الأعْقابِ الْمُرْتَفِعَةِ، ومعنى اللفظة الثانية: حزب الأعْقابِ الْمُنْخفضة. وكلاهما يزعُم أنه على حق.

وأنا ـ وإن كنت أرى أن ذوي الأعقاب الْمُرْتفعة هم حزب الكثرة ـ أعتقـد أَن المصلحة العامة تقضي باحترام ما قـرره إمبراطورنا؛ تلافيًا

للخلاف، ومحافَظة على وَحْدَةِ البلاد: فقد قرر الإمبراطور حين وَلِيَ الأمر ألَّا يستعمل أحدًا ـ في أيِّ عمل من أَعمال حكومته ـ إلَّا إذا كان من ذَوِي الأعقاب الْمُنخفضة، ولعلك لاحظت أن عَقِبَيْ جَلالةِ الإمبراطور هُما أَكثر الأعقاب انخفاضًا.

وقد بَلَغَتِ الْمُنافَسَةُ بين رجال الحزبين حَدَّ المخاصمة؛ فأصبح كل فريق يَمْقُتُ الآخر، ولا يَرْضى لنفسِهِ أن يُحَيِّيَهُ أَو يُكَلِّمَهُ.

ونحن نعلمُ أن حزب «الترامكسان» ـ أَي حزب الأعقاب الْمُرْتفعة ـ يَكْثُرُونَنَا عددًا، ولكننا أَقْوَى منهم؛ لأن سلطان الحكم في أيدينا.

ومما يُؤْسِفُنَا أشد الأسف أَننا نخشى أَن يكون صاحب السُّمُوِّ الإمبراطوري ـ وليُّ العهد ـ ممن يميلون إلى حزب الأعقاب المرتفعة؛ ويُرَجِّحُ لَنَا ذلك الْمَيْلَ أَن إحدى عَقِبَيْهِ أكثر ارتفاعًا من الأخرى؛ فهو لذلك يَعْرَجُ في مِشْيَتِهِ قليلًا.

وقد زاد على هذا الانقسام الداخلي أَنَّنَا مُهَدَّدونَ بِحَرْبٍ خارجية من سكان جزيرة «بليفُسكو» التي تَلي إمبراطوريتنا في القوة؛ فهي ـ إذا استثنيت إمبراطوريتنا ـ أَقوى إمبراطورية في العالم.

وقد كنا نسمع أَن في العالم إمبراطورياتٍ أخرى وممالكَ ودُوَلًا لم نرها، وأَنهم أَناسِيُّ مِثلُنا، ولكنهم أَضخم وأَكْبَر أَجسامًا منك، وهو كلام أَقْرَبُ إِلى الخُرافَةِ منه إلى الحقيقة، وقد شكَّ في صِحَّته فلاسِفَتُنا وخَطَّئُوهُ.

ولقد حاروا في تَعْليل ضخامةِ جسمِك، وتضارَبَت أَقوالهم في ذلك، ولم يُصَدِّقوا أنك من سكان هذا العالم؛ فهم يعتقدون أَنك هابط علينا من القمر، أَو نازل إلينا من أَحَدِ النجوم، فإِن مِائةَ رجل ـ في مثل حَجْمِك ـ يأكلون ـ في زمن يسيرٍ ـ كلَّ ما في هذه الإِمبراطورية العظيمة من فاكِهة وحَبٍّ وماشِيَةٍ.

على أن مُؤَرِّخِينَا لَمْ يذكروا في أسفارِهِمْ ـ منذ ستَّةِ آلافِ قمر ـ أن في الدنيا كُلِّها بلادًا غير إمبراطورِيَّةِ «ليليبوت» وإمبراطورية «بليفُسْكُو» الْمُجاورَةِ لنا، وقد دارت رَحَى الحربِ بين هاتين الإمبراطوريتين أكثرَ من ثلاثين قَمَرًا، وكانت حربًا عنيفة طاحِنَةً.

٦ ـ مُشكِلَةُ البَيْضَةِ

وكان سببُ هذه الحرب خِلافًا جَوْهَريًّا نَشِبَ بين الإمبراطوريتين، وهو ينحَصِرُ في الطريقة التي يجب أن يَتَّبِعَها الشعبُ في كسر بَيْضَة الدَّجاج؛ فَقد اتَّفق الناس جميعًا ـ منذ أقدم عصور التاريخ ـ على أن يَكْسِروا البيضةَ ـ إذا أرادوا أكلَها ـ من طَرَفِها الْمُسْتَعْرِضِ، ولكنَّ جَدَّ صاحِبِ الجلالة إمبراطورِنا الحالي وقع له حادثٌ في طفولته غَيَّرَ هذا النِّظامَ من الضِّدِّ إلى الضِّدِّ؛ فقد قُطِعَتْ إحدى أصابعِه وهو يَكْسِرُ البيضة.

وثَمَّةَ أصدر والدُهُ أمره إلى جميع رعاياه أن يَكْسِروا البيض من الطرَفِ الْمُسْتَدِقِّ، ووضعَ أقْصَى عُقوبة لمن يخالِفُ هذا الأمر، فتذمَّرَ الشعب وغَضِبَ، وثار ثَوْراتٍ عنيفةً على القانون الجديد. وقد ذكر لنا مُؤَرِّخو ذلك العهدِ أن الشعبَ قد ثار لذلك سِتَّ ثورات، انتهت بقتلِ جَدِّ الإمبراطور، وخلع والد الإمبراطور عن العرش!!

وقد كان لأَبَاطِرَةِ «بليفُسكو» أكبرُ يدٍ في إثارة الفِتَنِ الداخلية، وكانوا يَفْسَحُونَ بلادهم لزُعَماء تلك الثورات الهاربين، ويَحْفِزُونهم إلى إذْكاءِ نارِ الْفِتْنَةِ إذا خَبَتْ؛ وقد ذكر لنا الْمُؤَرِّخون أن كثيرًا من الناس قد آثروا الموت على أن يخضعوا لهذا القانون الجديد، الذي يَحْتِمُ كسرَ البيضة من طَرَفها الْمُسْتَدِقِّ! وقد هلك في هذه الفتن أكثرُ من

خمسةَ عشرَ ألف ثائر! وألَّف الكُتَّاب والباحثون ـ في هذا الموضوع الخطير ـ مئاتٍ من الكتب والأسفار الضخْمة! وأرسل إلينا أباطرة «بليفسكو» سفراءهم يتَّهِمُونَنَا بأننا قد اقترفنا أكبر جريمة عرفها التاريخ، وانتهكنا الأُصُولَ السياسيةَ، وأحدثنا حَدَثًا كبيرًا في شَرِيعَةِ نَبيِّنَا العظيم «دُسْترج»! وخالفنا نَصَّ كتابه المُقَدَّسِ!

على أن رِجالَ الدينِ عنْدنا لا يَروْنَ في ذلك القانون إلَّا تطبيقًا طبيعيًّا لِنَصِّ الآية التي جاءت في كتاب هذا النَّبيِّ، وهي:

«على كل مؤمن أن يكْسِرَ البيضَ من الطَّرَفِ الذي يراه أكثر ملاءمةً له».

والرأي عندي أن يُتْرَكَ لكل واحد أن يقرر ما يراه صالِحًا له، أو أن يَتْرُكَ النَّاسُ تقرير ذلك الحق إلى الإمبراطور، ولكن كبار الباحثين الذين نُفُوا من هذه البلاد يَرَوْنَ رأي إمبراطور «بليفسكو»، وقد لَقِيَتْ آراؤُهم في بلادنا كثيرًا من الْمُساعَدَةِ والعطفِ والتأييدِ، ودار ـ بسبب ذلك ـ تلك الحربُ العنيفةُ الطاحِنَةُ بين الإمبراطوريَّتَيْنِ سِتَّةً وثلاثينَ شهرًا، وكانت سِجالًا بيننا وبينهم. وقد خَسِرْنا فيها أربعين سفينةً كبيرةً من أُسْطُولِنا، وكَثِيرًا من السُّفُنِ الصغيرة، كما خَسِرْنَا ثَلاثِينَ أَلْفًا من أَشْجَعِ الملَّاحِينَ والجنودِ الْمُدَرَّبينَ!!

ولم تكن خَسارَةُ العدُوِّ بأقَلَّ من خَسارتنا، وقد علمنا أنهم يُعِدُّونَ الآنَ أُسطولًا هائِلًا لِغَزْوِ شَواطِئِنا.

وقد قلتُ لك: إنَّ صاحِبَ الجلالة إمبراطورنا العظيم قد وضع ثِقَتَه كُلَّها فيك، وأيقن أن النصر سيكون حليفَه ـ من غير شك ـ إذا ضَمِنَ تأييدَك لِفكرتِهِ، وقد أرسلني إليك لأتعرَّفَ رأيك في ذلك، وأُخْبِرَه به».

فقلتُ له:

«أَرجو أَن ترفعَ إلى مولايَ الإمبراطورِ أَنَّني جنديٌّ من جنودِهِ، وأَنني مستعدٌّ لِمُحاربةِ أعدائِهِ وَبَذْلِ نفسي ـ دِفاعًا عن شَخْصِهِ الْمُقَدَّسِ، وعن إمبراطوريته العظيمةِ ـ ولستُ أُحْجِمُ عن إراقَةِ آخِرِ قَطْرَةٍ من دَمِي في سبيل نُصْرَتِه».

ففرِحَ «السِّكِرْتيرُ» بِجَوَابي، وودَّعَني شاكِرًا مسرورًا.

الفَصْلُ الخَامِسُ

١ ـ أُسْطُولُ الأَعْداءِ

تَقَعُ إمبراطورية «بليفُسكو» في الشمالِ الشرقيِّ من إمبراطورية «ليليبوت»، ولا يفصلهما إلا قَنَاةٌ عَرْضُهَا نحوُ أَلف وثمانمائة مترٍ.

ولم أَكن قد رأَيت هذه القناةَ من قبلُ؛ فلمَّا أرشدوني إلى موقعها، تحاشَيْت جُهدي أن أَظْهَرَ في تلك الناحية أَو أَقترب منها؛ خَشْيَة أَن يراني أَحد من جيشِ العدوِّ، وقد عَزَمْتُ على تنفيذ خُطة هجومي سرًّا.

وقد أَحْكَمْتُ خُطَّةَ الْغَزْوِ إِحْكامًا، وأَسْرَرْتُ تفاصيلها إلى الإمبراطور ـ بعد أَنِ اطَّلَعْتُ على التَّقارير الحربية السِّرِّيَّةِ التي كتبها طَلائِعُ الجيش وعُيونُه ـ فابتهج الإمبراطورُ بخُطَّتِي الرَّشِيدَةِ، ودعا اللهَ أَن يوفِّقَني إِلَى النجاحِ في تحقيقِها، حتى يَتِمَّ لهم النصرُ الوشيكُ.

وكنتُ قد علمت من التقاريرِ الحربية أَن أُسطول الأعداء قد تمَّ إعدادُه، وأَصبحَ على أُهْبَةِ الحربِ والغزوِ، وأَنه يترقَّبُ أَوَّلَ فرصة سانحة ليغزوَ بها هذه البلادَ. ومتى اعتدل الهواء تَحَرَّكَ هذا الأُسطولُ الكبيرُ لِمُهاجمةِ الإمبراطوريةِ، والفتكِ بجيشِها، وتدميرِ قِلاعِها وحُصونِها.

وقـد علمتُ ـ من الْمَلَّاحِينَ الخُبَرَاءِ ـ أَن مُتَوَسِّـطَ عُمْقِ تلك القناةِ هو سِتُّ أَقْدامٍ.

٢ ـ وَسائِلُ الْفَوْزِ

فَانْسَـلَلْتُ خُفْيَةً إلى الشاطئ الشمالي الشرقي تُجاهَ «بليفُسكو»، وقد عزمتُ على الاستيلاءِ على أُسطولِ الأعداءِ، ثـم انْطَرَحْتُ خَلْفَ تَلٍّ، وأَخرجتُ من جيبي مِنظاري، فتبيَّنْتُ أُسطول العدوِّ بِجلاءٍ ووضوح، ورأيتـه مُؤَلَّفًا من خمسـين سـفينةً حربيـةً، وعددٍ لا يُحْصَى من سـفن النقل.

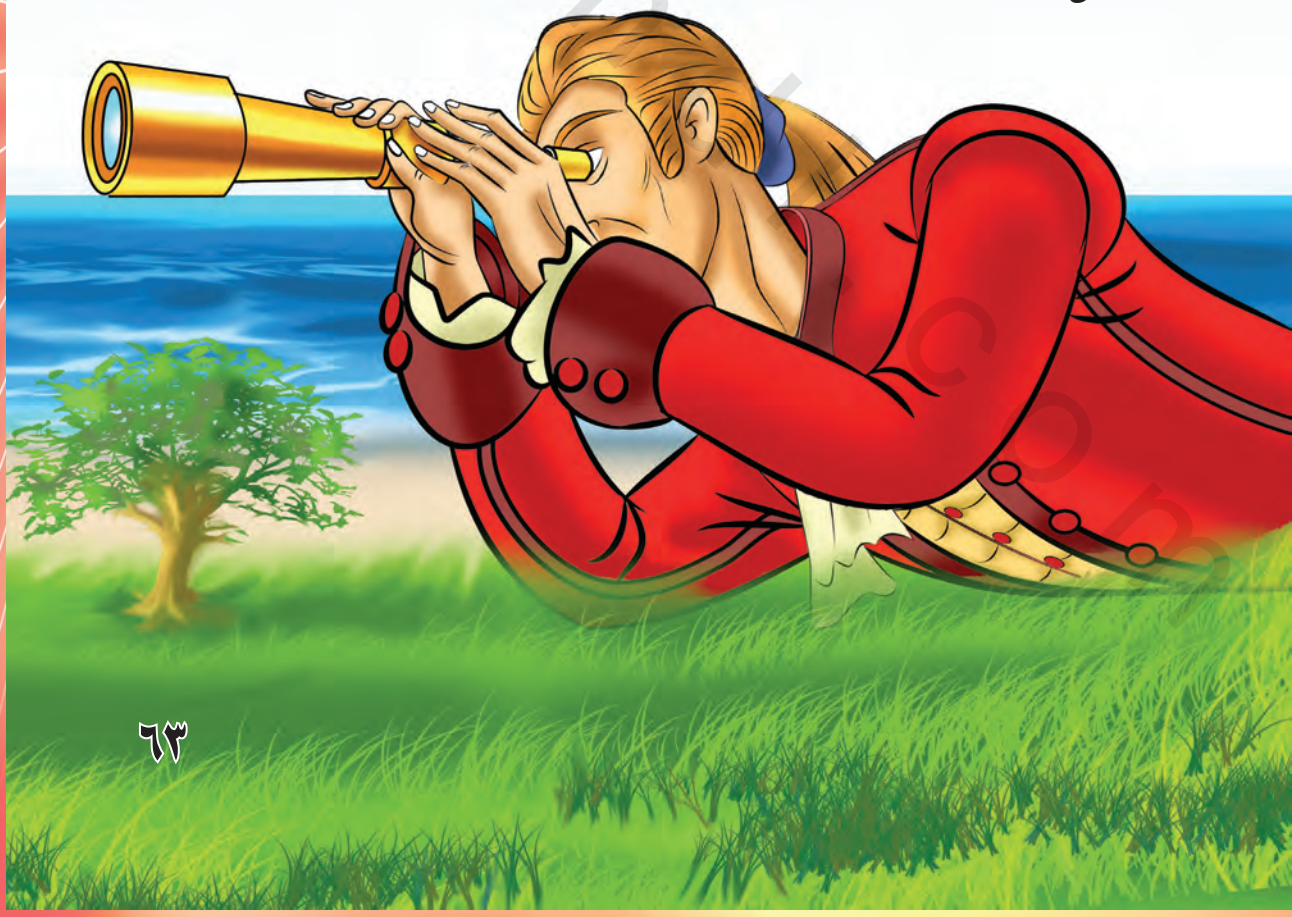

فرجَعتُ أدراجي، وأمرت بِصُنْعِ عدد كبير من الحبال الْمَتِينَةِ بقدر ما تَيسَّرَ لهم صُنْعه، كما أمرت بعمل شصوص من الحديد مثبَّتة في آخر هذه الحبال، ثم جعلت كل ثلاثة من الحبال مَعًا، لتكون أكثر متانةً، وضَمَمْتُ كل ثلاثة شُصُوصٍ معًا لتكون شِصًّا واحدًا قويًّا.

وما انْتَهَوْا من ذلك، حتى عُدت إلى الشاطئ الشماليِّ الشرقيِّ، ونَزَعْتُ حذائي وجَوْرَبي وثيابيَ الخارجية كلها، وظلِلْت أَخُوضُ الماء ـ بأشد سرعة أستطيعها ـ حتى وصلتُ إلى الْغَمْرِ، فسبَحت نحو ثلاثين مترًا. ثم استقرَّت قدمي على القاعِ فَسِرْت، ولم تَمُرَّ بي نِصْفُ ساعَةٍ حتى وصلت إلى أسطولهم.

وما كان أشدَّ جَزَعَ الأعداء ورُعْبَهُمْ حين رأَوْني أمامهم، فخُيِّل إليهم أن عِفْريتًا من الْجِنِّ قد جاءهم ليفتك بهم، واشتد رُعْبُهم من رؤيتي؛ فقفزوا جميعًا من سفُنهم كالضَّفادِع ولاذوا بالفِرارِ، ولا أحسبهم يَقِلُّون عن ثلاثينَ ألفَ جُنديٍّ.

٣ ـ مَعْرَكَةٌ حامِيَةٌ

أمَّا أَنَا فَلَمْ أُضِعْ لحظةً واحدةً سُدًى، فألقيت الشُّصوصَ على سفن العدو، وما فعلتُ حتى قَذَفُوني بِسهام كالمطر ـ في وجهي ويدي ـ وكان عددُ تلك السهام الدقيقة يقدَّرُ بالأُلوفِ، فاشتد أَلَمِي لِوَقعها،

وارتبكْتُ أشد الارتباك، وكان أخوَفَ ما أخافه أن تُصيبَ السِّهامُ عينيَّ فتفقأهما، ولكنني كنت مُقَدِّرًا وقُوعي في مثل هذا المأزِقِ من قبلُ؛ فأعددتُ له العُدَّةَ حتى لا أُفاجَأَ به، وثمة أخرجتُ نظارتي من جيبيَ الصغيرِ، ووضعتها على عينيَّ، وألْصَقْتُها بأنْفي إلْصاقًا ـ حتى لا ينفُذَ إلى عينيَّ شيء من سِهامهم ـ فأصبحتْ تلك النظارةُ كالدِّرْعِ الواقِيَةِ لعيني.

وما زلتُ أُواصِلُ عملي بِجدٍّ واجتهاد ـ والسهام تُمْطِرُني من كل ناحية ـ حتى وضعت الشصوص كلَّها في سفن الأعداء. وما انتهيتُ من ذلك حتى شدَدْتُها بكل قوتي، فلم تتزحْزَحْ قِيدَ شِبْرٍ من مكانها، فعلمت أن سفُنَهم مُثَبَّتةٌ بالعَقاقِيفِ، فقطعت ـ بِمُدْيتي ـ كل الحِبال المشدودة إليها في وقت وَجِيزٍ.

٤ ـ انْتِصارُ «جَلِفَر»

وما انتهيتُ من ذلك حتى سَهُلَ عليَّ أن أَجُرَّ خمسين سفينَةً من أكبر السفن، دون أن ألقَى في ذلك أَيَّ مَشَقَّة.

أما أهل «بليفسكو»، فقد استولى عليهم الذُّهول، وتملكت نفوسهم الْحَيْرةُ، ولم يعرفوا من أين جئت، وإلى أين أَقصِد، ولماذا قطعتُ حبالَ أسطولِهم، وأيُّ فائدة تعود عليَّ من ذلك؟

وقد دار بأخْلادِهم ـ أولَ الأمر ـ أنني أعْبَثُ، وأنني أَقطع حبال السفن ثم أتركها للموج لِتَرْتَطِمَ وتَصْطَدِمَ، ولكنَّ ظُنونهم قد خابَتْ، وأحلامَهم قد طاشَتْ ـ حين رأَوْني أَجُرُّ الأسطولَ كله مرة واحدة ـ فاستولَى عليهم اليأس والجزع، وظلوا يَصيحون، وهم في حَيرة من أمرهم.

وما أَصْبَحْتُ بمأمنٍ من كَيْدِهم، بعد أن وصلت إلى مسافة أبعدَ منْ مَرْمَى سهامهم، حتى وقفت قليلًا، ونزعت ما أَصاب وجهي ويديَّ من سهامهم، ثم استأنفتُ سيري إلى ميناء «ليليبوت»، فرأيتُ الإمبراطور ورجالَ حاشِيته يترقبون عودتي على شاطئ البحر بفارغ الصبر.

ثم رأَوا الأُسطول يقترب منهم ـ وأَنا غائص في الماء إلى عُنُقي ـ فلم يتبيَّنوني ـ أولَ الأمر ـ وحسِبوا أن أُسطولَ العدوِّ قد جاءهم ليغزوَ أرضهم، فاشتد جزعهم، وقد حسِبوا أنني أَصبحتُ في عِداد الهالكين، وظنوا أن العدوَّ قد تغلب عليَّ بكثرة عَدَدِه وعُدَدِه؛ فلما ظهرتُ أَمامهم تبدَّدَتْ مَخاوِفُهم، وتهلَّلت وُجوهُهم بِشْرًا وسرورًا، وصاحوا جميعًا هاتفين من شدةِ الفرحِ بهذا الفوز المبين:

«ليَحْيَ إِمبراطور «ليليبوت» ذو القوة والجبروت!».

obeikandl.com

٥ ـ مَطامِعُ الإِمبراطورِ

ثم جاءني الإِمبراطورُ ـ وعلى أَساريرِه أَماراتُ الغِبْطَةِ والسرور ـ وأَثْنَى عليَّ أَطيبَ الثناءِ، وشكر لي صنيعي أَجزل الشكر، وأَطلق عليَّ لقب «نَصِير الدَّولة»، ومَنحني ـ إلى ذلك ـ لقب «مُرداك»، وهو أَكبر لقب من أَلقاب الشرف، يمنحه الإِمبراطور مَنْ أَسْدَى إلى الدولة أَكبر صنيعٍ.

ولكنَّ الإِمبراطورَ لم يكْتفِ بهذا النَّصر الْمُبين، وطَمحَتْ نفسه إلى التَّنْكيل بأعدائه، والانتقام منهم أَشْنع انتقام، فطلب إليَّ أَن أُضيف ـ إلى هذا الصنيع ـ صنيعًا آخر، فَأَجِيئَهُ ببقية السفن التي يملكها الأعداءُ. وقد أَعْمَاهُ الْجَشَعُ وأَنساه الطمع كل شيء، فأصبح ـ بعد إِدْراكِ هذا الفوز الذي لم يُكَبِّدْه أَيَّ عناء، ولم يكن ليَحْلُمَ به من قبل ـ لا يفكر في شيء إلا أن يُذِلَّ أَعداءه إِذلالًا، فيستوليَ على «بليفُسكو»، ويستَعْبِدَ أَهْلَهَا، ويُلْحِقَهَا بإمبراطوريته العظيمة، ويستعمل عليها واليًا من قِبَله، ويُنَكِّلَ بزُعماء الثورة الذين لجئُوا إِلى تلك البلاد، ويُصدر قانونًا عامًّا يُحَتِّمُ على جميع هذه الشعوب أَن يكسِروا البيْض من طَرفِه الْمُسْتَدِقِّ، وأَن يَكُونَ القتلُ والصَّلْبُ جَزاءَ من يخالف هذا القانُونَ الصَّارِمَ.

وما إن كاشَفَني بأطْماعه تلك، حتى دَهِشْتُ من قسوتِه وعُنفه، وشَهْوَتِه الجامِحَة، ورغبته الْمُلِحَّة في الانتقام. ورأَيتُ أَن أَسْلُكَ كل وسيلة لأُحوِّله عن رأيه الخاطئ؛ فأكثرتُ له من الأمثلة والْحُجَج على

سُـوءِ عَواقِـب البَغْي، وأظهرت له خَطَرَ سياسـة العُنف، ومَزايا العدل والعفو عند المقدرة، فلم يَثْنِ ذلك من عَزْمِه، وأبَى إلَّا تحقيقَ أطْماعه، وإرضاء جَشعه.

وأَبَى عليَّ ضميـري وإنصافي أن أكون عَوْنًا على الظلم، وأن يتَّخذني الإمبراطور وسيلة إلى القضاء على حُرِّيَّةِ شعب نبيل شجاع.

ولمَّا عقد الإمبراطور مجلس الشُّـورى، كاشـفتُه برأيي، وعارضته في سياسته، فامتعضَ من مخالفتي رأْيَهُ، وتألم لذلك أشد الألم، ولكنه أسرَّ ذلك في نفسه، ولم يَغْفِرْ لي هذه المُخالَفَةَ الجريئةَ، ونَسِيَ ما أسْدَيْتُهُ إليه من صَنِيعٍ، على أنه كَظَمَ غَيْظَه، وتكلَّف الوُدَّ.

ورأى خُصومي وأعدائي ـ في معارضة الإمبراطور ومكاشَفَتِه برأيي ـ وسيلةً للكيد لي، والانتقام مني، وإيغارِ صدرِه عليَّ.

٦ ـ مُفاوَضاتُ الصُّلْحِ

وبعـد ثلاثة أسـابيعَ من ذلك الانتصـار الباهِرِ، حضر وَفْدٌ سياسـيٌّ مـن «بليفُسـكو»، ومعه مُعاهَدَةٌ على الصلح، وقـد نزلوا على مطالبهم، وجامَلـوا الإمبراطـور بكل وسـيلة، وكان ذلـك الوَفْدُ مؤلفًا من سـتة رجال ـ من أعْيانِ «بليفُسكو» وسَراتِها ـ يتبعهم خَمْسُمِائة جنديٍّ، وفي هذا وحده دليلٌ على خَطَرِ ما جاءوا لأجله.

وما أبْرَمُوا الْمُعاهدةَ، حتى عرَفوا ـ من مصدر خَفِيٍّ لا أعلمُهُ ـ كُلَّ ما دار بيني وبين الإمبراطور من مُعارَضَةٍ شَريفة لِوَقْفِ أطْماعه وجَشَعِه، فجاءوا لزيارتي باحتفال عظيم وشكروا لي مُروءَتي، وأثْنَوْا على شجاعتي وكرَمي، ودعَوْني لزيارة مَوْلاهم إمبراطور «بليفُسكو» الذي ذاعتْ مَناقِبُه ومَزاياه الباهرةُ في كل أنْحاء العالم، فوعدْتُهم بزيارة جلالته قبل أن أعودَ إلى بلادي.

وكان سُفَراءُ «بليفُسكو» يتحدثون إليَّ بلغتهم، فيترجمها لي تَرجُمانٌ منهم بلغة أهل «ليليبوت»، وقد كانَ بين اللُّغتينِ اختلافٌ كبيرٌ، وكان كل من الشَّعبيْن يفخَرُ بِلُغَتِهِ ويَحْتَقِرُ اللغة الأخرى.

٧ ـ جَفاءُ الإمْبِراطُورِ

وبعد أيامٍ قليلةٍ التمسْتُ من الإمبراطورِ أن يأذَنَ لي في زيارة إمبراطور «بليفُسكو» العظيم، فأجابني إلى ذلك في جَفاءٍ وامْتِعاض، وقد بَدَتْ على أساريرِهِ أماراتُ الغيظِ والحَنَقِ.

وكأنما نَسِيَ الإمبراطور أنه مَدينٌ لي ـ وحْدي ـ بهذا الفوز الباهِر، فتملَّكه الزَّهْوُ، وراح يتحكَّم في سُفراء «بليفُسكو»، ويأمرهم أن يقدموا إليه أوراق اعتمادهم، وألَّا يتحدثوا إليه ـ في خُطَبِهِمْ ـ بغير لغة بلاده. ولم يكن ذلك ليُعْجِزَهُمْ؛ فقد كان لتبادل التجارة بين الإمبراطوريَّتيْنِ فضلٌ في إتْقان خاصَّتِهِمَا هاتين اللغَتَيْن. وقد كان أهل

«ليليبوت» يُرسلون أبناء سَراتِهم إلى «بليفُسكو» ليتزوَّدوا من العلم وفُنون الحرب والسِّباحة وما إلَى ذلك. وقد سهَّل هذا الاتِّصالُ كُلَّهُ إجابة طلب الإمبراطور، وإن كان في قَبولِهِ مَسٌّ لكرامتهم القومية.

٨ ـ قصرُ الإِمْبِرَاطورِ يحترقُ

وبعد أيامٍ قلائِلَ أُتيحَتْ لي فرصةٌ أخرى لإسداء صَنِيعٍ جديدٍ إلى إِمْبِرَاطُورِ «ليليبوت»؛ فقد استيقظت ـ في منتصَف ليلة مُقْمِرَةٍ ـ على صيحات جمهرةِ الشعبِ الذي جاء يستصرِخني، ويطلب النَّجْدَةَ والغَوْثَ من كارثةٍ أليمةٍ حلَّت بقصر الإمبراطور، وما إن أَفَقْتُ من نومي حتى جاء إليَّ جماعةٌ من حاشية الإمبراطور ـ بعد أن شَقُّوا طريقهم بين صفوفِ الجُمهور المُتراصَّة ـ وتوسلوا إليَّ أن أُسرع الخُطا لأُخْمِدَ النارَ التي شبَّت في غرفة الإمبراطورة.

وكان سبب هذا الحريق أن إِحدى وصيفاتِ الإمبراطورة كانت تقرأ قصيدة أحد شعراء «بليفُسكو» وهي مُضْطَجِعَة على فِراشها، فبَدَرَتْ منها حركة ـ دون قصد ـ فانقلب الْمِصْبَاحُ على الأرض، واشتعلت النارُ، فصرخت الوصيفةُ صُراخًا مزعجًا أيقظ كل من في القصر، وأسرع جنود الإمبراطور وجمهرةُ الشعب ليُطفئوا النار، فذهبت جهودهم كلُّها سدًى.

وما إن سمعتُ من الحاشية نبأَ هذا الحريق، حتى قمت ـ من فَوْرِي ـ مُسرعًا، فوصلت إلَى القصر الإمبراطوريِّ، وكان الْبَدْرُ مُؤْتَلِقًا في هذه الليلة ـ لحسن الحظ ـ فأبصرت طريقي واضحةً جَلِيَّة، ولم تَطَأْ قَدَمايَ أحدًا.

وما وَصلتُ إلى القصر حتى رأيت رجال المطافئ قد رفعوا سلالمهم على جُدْرانه، ولكن الماء كان ـ لسوء حظهم ـ على مسافة بعيدة من القصر.

ورأيت دِلاءَهُمْ في مثل حجم أُنْمُلَتِي تقريبًا، ورأيت الحريق يشتد ويَعْظُمُ بسرعة، وعلمتُ أن النار ستلتهم هذا القصر البديع الفخم بعد وقتٍ قصيرٍ، فلم أَيْئَس من إخْمادِ النار الْمُسْتَعِرَةِ؛ وعنَّتْ لي فكرةٌ سَديدَةٌ، فأسرعت إلى مسكني، وحملت طَسْتًا كبيرًا كنت أستحِمُّ فيهِ، وكان مملوءًا بالماء ـ لحسن الحظ ـ فألقيت ما فيه من الماء على ذلك اللهَبِ الْمُسْتَعِرِ، فخمَدَتِ النَّارُ في الحال.

ولم أكنْ أعرِف ـ حينئذ ـ هل يرضَى الإمبراطور عن هذا العمل أو يستنكرهُ مني؟ فقد كنت أعْلَمُ أن قانون الإمبراطورية يَنُصُّ على أن كل من يجرُؤ على الدُّنُوِّ من القصر الإمبراطوري ـ من غير إذْنٍ ـ أو يُلْقِي عليه شيئًا قَذِرًا، فجزاؤه القتل.

وما كنت لأجهلَ أنني ألقيت على القصر الإمبراطوري ماءً قذرًا، وأنني أستوجب ـ لذلك ـ عُقوبةَ الصَّلْبِ أو القتل، ولكنني اضطُرِرت

إلى هـذا العمـل اضطـرارًا، ولم يكـن لي مَنْدُوحَـةٌ عنه؛ فقـد آثرت أن أَخْـرِقَ القانـونَ ـ عامِدًا ـ لأُنْقِذَ قصر الإمبراطور: وبعضُ الشَّـرِّ أهْوَنُ من بعْضٍ!

وإني لأَتوقَّـعُ العقـابَ أَوِ العَفْـوَ ـ وأنا حائِـرٌ بين فَدَاحة الْجُـرْمِ ونُبل الْمَقْصِدِ الذي دفعني إلى اقْتِرَافِهِ ـ إذْ علمتُ أن جلالة الإِمْبِرَاطُورِ قد أمر قاضِيَ القُضاةِ أن يرسِلَ إليَّ بكِتَابِ العَفْوِ عن ذلك الجُرْمِ الذي ارتكبتُه، يَدْفَعُنِي قَصْدٌ حَسَنٌ.

obeikandl.com

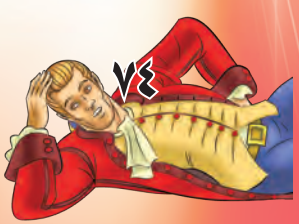

الفصل السادس

١ ـ سكان الإمبراطورية

ولا شكَّ أن القارئ قد تَاقَتْ نفسُهُ إلى تعرُّفِ صِفات هؤلاء السكان وآرائهم ومُعْتَقَدَاتِهِمْ. ولما كان ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ بعَيْنِه، فإني أجتزئُ ـ في هذا الفصل ـ بذِكْرِ أَهمِّ ما يُحِبُّ القارئ أَن يعرفه من شَأْنِ سكان هذه الإمبراطورية:

أما مُتوسِّطُ ارتفاعِ قاماتهم، فلا يكاد يزيد على سِتِّ أصابعَ، وقد كانت نباتاتُهم وأشجارهم وحيواناتهم مُناسِبةً ضآلَةَ أجسامهم، وصِغَرَ حُجومهم، فلم يكن يزيد ارتفاعُ الجيادِ والعجول على أربعِ أصابع أو خَمْسٍ، وكان متوسطُ ارتفاع الخِرْفانِ إصبعًا ونصف إصبع، وكان إوَزُّهم يكاد يشبه الشُّحرورَ.

أما حشراتُ هذه البلاد، فقد كان من الْمُحالِ عليَّ أن أراها لدقتها. على أن أبصار هؤلاء الأقزام كانت تتبيَّنُهَا بسهولة تامة؛ فقد وهبهم الله ـ سبحانَهُ ـ بَصَرًا حَدِيدًا يُمَكِّنُهُمْ من رؤية أدقِّ الأشياء التي لا نراها إلا بالْمِجْهَرِ. وقد رأيت ـ ذات مرة ـ طاهِيًا ينتِف ريش قُبَّرَةٍ لا يزيد حجمها على حجم الذبابة، وأذكر أنني رأيت فتاةً تُدْخِلُ خيطًا في سَمِّ

الخياط (ثَقْبِ الإِبْرَةِ) فلم أستطع أن أرى الخيط وَلا الإِبرة لدقتهما، بلْهَ سَمَّ الإبرة.

٢ ـ بعضُ عاداتِهم

وكانوا يكتُبون ويقرءون في سُهولة، ولكن طريقتهم في الكتابة غاية في الغرابة؛ فهم لا يكتبون من اليسارِ إلى اليمينِ كما يكتبُ أهل أوربا وأمريكا، ولا من اليمينِ إلى اليَسارِ كما يكتبُ العَرَبُ، ولا من أعْلَى إلى أسفلَ كما يكتب الصِّينيون، ولا من أسفل إلى أعْلى كما يكتب بعضُ الأمم؛ ولكنهم يَسْلُكُونَ في كتابتهم مَسْلكًا يُخَالِفُ أساليب الناس جميعًا؛ فهم يَكْتُبُونَ سُطُورًا مُنْحَنِيَةً من إحدى زوايا الورق إلى الزَّاوية الأخرى.

أما أُسلوبهم في دَفْنِ مَوْتَاهُم، فهو أسلوب عجيب حقًّا؛ فإنهم يضعون رءُوسَ موتاهم ـ في قبورهم ـ إلى أسفلَ، وأَرْجُلَهم إلى أعْلى؛ لأنهم يعتقدون أَن يوم الْبَعثِ سيجيء بعد أحدَ عشرَ ألفَ قمرٍ، وحينئذ يبعثُ اللهُ من في القبور، ويقلبُ الأرض فيجعل سافِلَها عالِيَها.

ولَمَّا كانوا يظنون أن الأرضَ منبسطةٌ ليست كُرِيَّة، رأَوْا أن يدفنوا موتاهم بهذه الطريقة، حتى إذا جاء يومُ البَعْثِ والنُّشُورِ، وانقلبتِ الأرضُ ـ حينئذ ـ فأصبح عاليها سافِلَها، بُعِثَ مَوْتاهُم واقفين على أَقدامهم.

وكان العامَّـةُ يؤمنـون بهـذه الْخُرافَةِ إِيمَانًـا وَثِيقًا، ويرَوْنها من العقائـد الدينية التـي يَجِبُ على كل مُؤْمـنٍ أن يَديـنَ بها؛ وَيُكَفِّـرونَ كل من يحاول أن يقنعَهم بفسـاد هذه العقيدة، أو يُظهر لهم أَن دينهم براءٌ منها.

وكان عُلماؤهـم وخاصَّتُهُـمْ يعلمون فسـاد هـذا الرأْي وخطَلَـه، ولكنهـم لا يجرُءُون عـلى إِذَاعَـةِ آرائهم هذه؛ حتى لا يؤذِيَهُمُ الشَّعْبُ، ولا يثورَ عليهم.

٣ ـ عِقابُ الخائِنِ

وأكثر قوانين هذه البلاد وعاداتهم غريبٌ عنا، مُخالِفٌ لعاداتنا وقوانيننا كل المخالفة، ومن أعجب ما رأيته من قوانينهم صرامَتُهم في معاقبة الوُشاة والنمامين؛ فقد نص القانون على أَن كل جريمة تُقْتَرفُ ضد الدولة يكون جزاؤها أقصى العقوبة: وهو القتل ـ لا هَوادةَ في ذلك ولا رحمةَ ـ فإذا استطاع المتهم أن يبرِّئ نفسه من تُهَمَته، قضت المحكمة بقتل من ألصق به هذه التُّهَمَةَ، وإعطاء البريء جميع أملاكه، فإذا وَشَى صُعْلُوكٌ فقير بإنسانٍ ثم ظهرت براءته. لم يكتف الإمبراطورُ بتبرئةِ البريء، وقتل الواشي الْمُسيء، بل يمنحُ البريء شيئًا من أملاكه الخاصة يُعَوِّضُ عليه ما لَحِقَهُ من عَنَتِ السجن، وما أصابه من ضرر التُّهَمة.

أما جريمة الغِشِّ، فهي ـ عندهم ـ أشد فظاعةً من جريمة السرقة، وعقابها صارم كعقاب خيانة الدولة ـ سَواء بِسَواءٍ ـ فَكلاهما جزاؤه القتل.

وإنما شدَّدُوا النَّكِيرَ على الْمُدَلِّس الغاشِّ؛ لأنهم رأَوْا أن من اليسير على كل إِنْسَانٍ ـ إذا كان يَقِظًا حازِمًا ـ أن يَصُونَ أمواله وأَملاكه عَن أَن تمتد إليها أَيْدي اللصوص، ولا كذلك الشأن في المدلِّس، فإن حيلته وأَساليب مكره تخدع الطاهر القلبِ. وقوانين هذه البلاد تُشجِّع على

النزاهـة والأمانة، وتحاربُ فسـادَ الذِّمَّةِ بكل وسـيلة صارِمَةٍ. وهم في ذلـك أَبْعَدُ نظرًا من كل من عَدَاهم من الأمم التي تتهاون في القِصاصِ ومعاقبة المجرمين.

عـلى أَنهم لا يقتصرون على معاقبة الْمُسـيء، بـل يتخَطَّوْن ذلك إِلى مُكافأة المحسـن ـ تشجيعًا له على إحسانه، وإغراءً لغيره بتَقليده ـ فإذا أَثبـت إنسـان أَنه أَخلـص لبلاده، ولـم يخالـفْ قانونَها ثلاثةً وسـبعين قَمَرًا، منحته الحكومة شـيئًا من الامتياز ـ على حَسَـبِ مكانته ودرجته وأَصلـه ـ وكافأَتـه بالمال، ولقبتـه بلقب «الرَّجُلِ الشَّـرْعِيِّ»، وهو من أَلْقَابِ الشـرفِ الرفيعـةِ عندهم، وهو وَقْفٌ على مَـنْ يُمْنَحُهُ في حياته، ولا ينتقل إِلى أَبنائه بعد موته.

وهم إنما يفعلون ذلك لاعْتِقَادِهِمْ أَن القانونَ لا يَكْمُلُ إِلَّا إذا أضاف إِلى معاقبة المسيء إثابَةَ المحسن، فكما تعاقب الحكومة كل من يجرُؤُ على مخالفة قانونها، يجدُر بها ـ إِلى ذلك ـ أَن تُثِيبَ كل من يأخذ نفسه باتِّباع القانون بدقة وإخلاص.

وهم يتمثَّلون العدالة في تمثالٍ ذي سِتِّ أَعْيُنٍ: اثنتان من أمام، واثنتان من خلفٍ، وواحدة من الجانب الأيمن، وأخرى من الجانب الأيسـر ـ يَعْنُـون بذلك تمثيل الْحِرْصِ الشـديد ـ وفي يمين ذلك التمثال كيسٌ مملوء ذهبًا، وفي يسـاره سـيفٌ مُغْمَدٌ، رَمْـزًا إِلى المكافأة والقِصاصِ؛ وإنما لم يَسُلُّوا السيف من غِمده رمزًا إِلى إيثار الْحُسْنى والعفو.

وهـم ـ إذا اختـاروا مُوَظَّفِـي الحكومـة ـ يُؤْثِـرُونَ ذوي الأمانـة والاستقامة والأخلاق الفاضلة على ذوي المواهب والعبقريات.

ولمَّـا كانوا يعتقـدون أن الحكومةَ ضروريةٌ جدًّا للجنس البشـريِّ. اعتقـدوا أن الله قـد سـهَّلَ إدارة شـئونها العامة ويسَّـرَها تيسـيرًا، ولم يشـأ أن يجعلهـا من الأمور العويصـةِ الغامضةِ التـي لا يُتْقِنُها إلا ذَوُو المواهبِ النادرة والْعَبْقَرِيَّاتِ الفَذَّةِ، بل جعلها هَيِّنَةً ميسـورةً يسـتطيعُ أن يؤدِّيَها كل إنسـانٍ فاضِل يَحْرِص على النَّزاهة والاسـتقامة والعدل، ويجمـع ـ إلى هـذه المزايـا ـ قليلًا مـن الدُّرْبَةِ واليَقَظـةِ وحب الوطن، والقيام بما عليه من فروض وواجبات. وهم يؤمنون إيمانًا صادِقًا بأن الْخُلُـقَ الفَاضِلَ وحده هو سِـرُّ النجـاحِ، وأن إِنسـانًا ـ بالغًا ما بلغ من المواهب العقلية النادرة والذكاء الخارِقِ والأَلْمَعِيَّةِ ـ لن ينفع بلاده إذا فقد حُسْنَ الخُلُقِ ويَقظةَ الضمير، بل إنهم لَيَرَوْنه أشدَّ خَطَرًا على بلاده ممـن حُرِم هَـذه المواهِبَ؛ لأنه أقدر عـلى الإضْرارِ والإِسـاءة، ولأن وزيرًا جاهلًا في خَطَإٍ ـ لجهله ـ لن يكون ضررُه بليغَ الأثَرِ، ولكنه ـ إذا كان أَلْمَعِيًّا ـ اسـتطاع أن يَسْـتُرَ تَدْلِيسَـه وخيانته وإجرامه، بما أوتيَ من حِذْقٍ ومهارة؛ فَيُصْبِحَ بمأمن من العقاب.

وهـم يحرصون على الدِّين أشـد الحـرص ويُفَقِّهُـونَ أطفالَهم فيه؛ لاعتقادهم أنه أصل الخير وَمَصْدَرُ الفضائل وجُمَّاعُ الأخلاق النبيلة، ولا يُسندون أي عمل من الأعمال العامة إلى رجل لا يحرص على دينه ولا يَخْشَى اللهَ.

ولَمَّا كان الشَّـعْبُ يرى في إمبراطوره أنه رسولُ القُدْرَةِ الإلهية إليه، فإنه يرى أَن من الْحَتْمِ عَلَى ذَلِكَ الرسول الإلهي أَلَّا يَسْتَخْدِمَ في أَعْمَالِ الحكومة أَحدًا مِمَّنْ لا دِينَ لهم، وإلا كان الإمبراطورُ حانِثًا في عَهْدِهِ، غَيْرَ أمِينٍ على الوَدِيعَةِ التي اؤْتُمِنَ عَلَيْهَا.

٤ ـ مُخالفةُ القَانُونِ

هذه هي الأُسُسُ الفاضلةُ التي بُنِيَ عليْهَا قانونُهم الدقيق، على أَنَّهُمْ ـ لسوء الحظ ـ لم يَتَّبِعُوا رُوحَ هذا القانون الذي كان سرَّ نجاح أَسْلافِهم، بل أَدخلوا فيه كثيرًا من التَّحْوير والتعديل ـ مُجارَاةً لأهوائهم ونَزَعاتهم الطائشـة ـ حتى أصبحتِ الْمَناصبُ العاليةُ لا تُنال إلا بالرَّقْصِ والقفز على الحبال كما أَسـلفنا، ونَسُـوا نُصُوصَ قوانينهم الأولى؛ فكان ذلك نَذِيرًا لهم بالانْحِطَاطِ والتَّدَهْوُرِ.

وقد كانَ أَوَّلَ من أَدْخَلَ هذا التَّغْيِيرَ الْمَشْئُومَ على قانونِ تلك البلاد، هو والدُ الإمبراطورِ الحاليِّ.

٥ ـ أَسَالِيبُ التَّرْبِيَةِ

ويرى هذا الشعبُ في إنكارِ الجميلِ جريمةً كبيرةً لا تُغْتَفَرُ، ويقولُ:

«إن مَنْ أَساء إلى من أَحسن إِلَيْهِ لا يستحقُّ الاحترامَ. وما أجدرَه أَن يسقُطَ من عدادِ الأناسيِّ، ويُسْلَكَ في عِداد البهائم».

ويرى هؤلاء الأقزامُ أَن الوالِدِينَ جديرونَ أَلَّا يحملوا أَعْباءَ تربيةِ أَبنائهم. وحَسْبُهم أَنهم قد نَسَلُوا ذُرِّيَّةً جديدة تنفع بلادهم. ولذلك أَنشأت حكومَتُهم مدارسَ دينية عامة في كل بلد من البُلدان، وقد حَتَمَ قانون هذه الإمبراطورية على الآباء والأمَّهات ـ ما عدا العمال والفلاحين ـ أَن يُرْسلوا أَبناءهم وبناتهم إلى تلك المدارس؛ ليتلقَّوْا ثقافتهم ـ متى بلغت أَسْنانُهم عشرين قمرًا ـ وثَمَّةَ يُنْقَلون إِلى المدارس التي تُلائِم مواهبهم، وهي مدارسُ شتَّى للبَنِينَ والبنات، وَفيها أَساتِيذُ مُدَرَّبون قد أَتقنوا فُنُون التدريس وَالتهذيب، وَوَقَفُوا حياتَهم على خدمة النَّشْءِ وتثقيفهم، وَقد جعلوا نُصْبَ أعينهم أَن يَبُثُّوا في نفوسهم مَقاصِدَ الخير والشرف، وخِلالَ العدل والشجاعة والتواضع والرحمة، ويَغْرِسُوا في قلوبهم ـ منذ طُفُولتهم ـ حُبَّ الوطن والدِّين.

وفي كل مدرسة رجالٌ يُعْنَوْنَ بشئون هؤلاء الأطفال، ويُلبسونهم ثيابَهم، حتى إذا بلغت أسنانُهم أربعة أعوام، أصبح من الْحَتْمِ عليهم أن يرتدوا ثيابهم بأنفسهم مهما سَمَتْ مَناصِبُ آبائهم.

ولا يُباح لهؤلاء الأطفال أن يَسْمُرُوا وَيلْهُوا إلا بِحَضْرَةِ مُعَلِّمٍ يتعهَّدُهم في أسمارهم ولَهْوِهِم؛ حتى يَأْمَنَ عليهم النَّزَواتِ الطائِشَةَ، ويَقِيَهُمْ فسادَ الأخلاق في هذه السن.

وللآباء والأمَّهات أن يزوروا أبناءهم وبناتِهم ـ مرَّتين في كل عام ـ وليس لهم أن يَلْبثوا في زيارتهم أكثر من ساعة واحدة. ولهم أن يتكلموا مع أولادهم في حُرِّيَّةٍ تامَّةٍ، وليس لهم أن يدلِّلُوهم أو يُعْطُوهم لُعَبًا أو حَلْوَى أو يُسِرُّوا إليهم بشيء لا يسمعه المعلم الْمُشْرِفُ على النِّظام.

أما مدارسُ البنات، فإنك تجد فيها بناتِ الأُسَرِ الرَّاقِيَةِ يُنَشَّأْنَ كما يُنَشَّأُ الْبَنُونَ، ويَقِفُ على العناية بشُئونهن خادماتٌ أمينات يُلْبِسْنَهُنَّ ثيابهن في حضرةِ إحدى المدرسات، حتى إذا أدركن الخامسة من سِنِيِّهن وجب عليهن أن يرتدين ثيابهن بأنفسهن.

ومتى ثَبَتَ على إحدى الْمُرْضِعات ـ أو الخادمات ـ أنها قصَّت على أحد الأطفال قِصَّةً مخيفةً من تلك الخرافات التي تترك في نفوس الأطفال أسْوَأ الآثار، أنزلوا بها أشدَّ العِقاب، وأمروا بِجَلْدِها في كل مَدِينَةٍ ثلاثَ جَلَدات. فإذا تمَّ جَلْدُها، سُجِنَتْ عامًا بأكمله، فإذا قضت مدَّةُ سجنها، نُفيَتْ إلى بَلَدٍ ناءٍ سحيق!

وهكذا تُعْنَى الحكومَةُ بِثقافَةِ البنينَ والبناتِ، وتَنْشِئَتِهِمْ أحسنَ تَنشِئَةٍ، مع تَعْوِيدِهِم النَّظافَةَ وحُسْنَ الأدب.

أما الدُّروسُ الَّتِي يتلقَّوْنَهَا، فهي هيِّنَةٌ ميسورة، لا تكاد تتجاوز مبادئَ العلوم وأدبَ اللغةِ والدِّين. وَمِنْ حِكَمِهِمْ وأَمْثَالِهِمُ المعروفَةِ أَنَّ الزَّوْجَةَ جَدِيرَةٌ أن تكون لِزَوْجِهَا خَيْرَ مُعينٍ، وأن تتعهَّدَ عقلَها بالثقافة والعلم دائمًا حتى لا يَشِيخَ عقلُها. ويرى هذا الشعبُ ـ رَأْيَ اليقين ـ

أن العنايـة بتربيـة الأطفال هي أُسُّ نَجاحِ الوطـن ومصدرُ خير البلاد، فـإِنَّ الطِّفْلَ الْكَامِلَ سـيكون ـ بعـد قليل ـ الرجلَ الكامِـلَ. ويقولون: إن من الْمَيْسـور أن نُؤَسِّسَ أُسـرة فاضلة، كما أن من الْمَيْسور أن نَبْذُرَ الْحَـبَّ وأن نَتَوَلَّاهُ بالعِنَايَةِ. وكما أن بعض النبات يتطلب منَّا أن نَرْعَاهُ ونَدْفَعَ عَنْهُ غَائِلَةَ الشِّـتاءِ وقسْـوةَ العواصف الصَّيْفِيَّةِ وفتك الحشرات الْمُؤْذِيَةِ حتى نَجْنِيَ منه أطيبَ الثمار، وَكَمَا أن البُسْـتَانِيَّ الماهرَ الذكيَّ قادِرٌ على تعهُّدِ حديقته تعهُّدًا يجعلها تُؤْتي أطيبَ الثمر، كذلك الأستاذ الصالـح قـادرٌ على أن يتعهد الطفلَ ـ كما يتعهد البسـتانيُّ النبات ـ وأن يَغْـرِسَ فيه أنْبَلَ الأخلاق وأكرم العـادات، وأن يُثْمِرَ تعهُّدُه إيَّاه أطيب الْجَنَى وأشْهَاهُ.

٦ ـ أُسْلوبُهُمْ في التَّعْلِيمِ

وهم يُعْنَوْنَ العناية كلها بِتَخَيُّرِ المعلِّمِينَ، ويُؤْثِرونَ أن يكونَ المعلمُ صحيـحَ العقـل مُتَّزِنَ التفكير، عـلى أن يكون ذا مواهِبَ سَـامِيَةٍ ونُبوغٍ عظيـمٍ. وهـم يَتَوَخَّوْنَ ـ إلى ذلك ـ أن يكـون المعلم كريم الْخُلُق، ولوْ كان قليلَ الاطِّلاعِ والعلم.

أمـا مَناهِجُ التربية عندهم، فهى مناهِجُ وَاضِحَةٌ، ترمي ـ في تفصيلها وإجمالهـا ـ إلى تعليـم الأطفـال: كيف يفهمـون الحياةَ العمليـةَ فَهْمًا

صحيحًا، وكيف يبتهجون بروائع الطبيعة الفاتنة. وهم يُحَرِّمونَ على الْمُدَرِّسين أن يُزْعِجُوا تلاميذَهم بمناقشات عَقِيمةٍ فارغةٍ، وأن يُرْهِقوا أذهانهم بأخْلاطٍ من المعارف وأَشتاتٍ من العلوم لا صِلَةَ لها بالحياة. وهم يعتقدون أن الذِّهْنَ الإنسانيَّ يَجِبُ أَلَّا يعرف ـ من أَلوان العلم ـ إلا الضروريَّ الذي ينفعه في الحياة ويُنِيرَ له السبيل إلى النجاح. لذلك كانت علوم تلك المدارس متصلة بالحياة الخارجية أَوْثَقَ اتِّصَالٍ؛ فهم لا يَكُدُّونَ أَذْهَانَ تَلَامِيذِهِمْ في تَعَلُّمِ لُغَةٍ قديمَةٍ أَبْلَاهَا الزَّمَنُ، وقُضِيَ عَلَيْهَا بالْمَوْتِ، ولا يُرْهِقُونَهُمْ بالنَّحْوِ والصَّرْفِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ. ولكنَّهُمْ يُعْنَوْنَ بِالتَّطْبِيقِ والأمثلة العمليَّةِ، ويُعلِّمُونَهُمْ ـ منذ حداثَتِهِمْ ـ الحِكْمَةَ والفلسفةَ، وينتهِزُونَ كل فرصة من الفرص

لِتَحْبيبِهِمَا إليهم، ويتَّخِذُونَ ـ من أَوْقَاتِ اللَّهْوِ والتسلية ـ مناسبات لشرْحِ أَسْرَارِ الطبيعةِ بِطَرِيقَةٍ فلسفية جذَّابَةٍ.

وثمَّةَ يخرجُ الطالِبُ ـ بعد الانتهاء من زمن الدرس ـ مُزوَّدًا بكل ما تَطْلُبُهُ الحياةُ من قُوَّةٍ وجَلَدٍ وخِبْرَةٍ، ومعه كل أَسلحة النِّضالِ والكِفَاحِ.

وعندهم أَنَّ من الْمُخْزِي أَنْ يَخْرُجَ الطَّالِبُ من المدرسة وهو جاهل بأسرار الحياة، وأَنْ يبْدَأَ دَرْسَهَا بعد ضَيَاعِ الفُرْصَةِ، وأَن يحاوِلَ أَنْ يتعلَّمَ كيْفَ يعيش بعد أَن يقترب من نهايَةِ أَجَلِهِ، وأن يصل إِلى سنِّ الرجولة وهو لا يزال طفلًا في هذه الحياة.

٧ ـ حُبُّ الحقيقةِ

وهم يُشجِّعُونَ كُلَّ من يعترف بِخَطِئِه، ويَمْنَحُونه أَجزل مكافأة، كما يُثِيبونَ التَّائِبَ الذي يَدُلُّ على نقائصه وعُيوبه من تِلقاء نفسه، ويَعْفون عنه ويكرِّمونه؛ لاعتقادهم أَن الرجوع عن الخطأ إِلى الصواب فضيلةٌ عظيمةٌ جديرةٌ بالتَّقديرِ والتَّشْجِيعِ.

وهم يَنْشُدُونَ في جمهرة الشعب أن يُخْلِصُوا لإمبراطورهم إخلاصَ حبٍّ ووفاء وولاء، لا إِخْلَاصَ خوفٍ وتملُّقٍ ورِياء.

٨ ـ دِرَاسَةُ التَّارِيخِ والفلسفَةِ

أما دراسةُ التاريخِ، فهي على غير ما نألَفُهُ في مدارسنا، وقلَّمَا يُعَنِّي مُدَرِّسو التاريخ أنفُسَهم بشرح الحوادثِ التاريخيةِ وتحليل أبطالها تحليلًا دقيقًا يُصَوِّرُ للنَّشْءِ ما قاموا به من جلائل الأعمال، وما وقعوا فيه من الْخَطأ.

وقلَّما يأبَهُون لتواريخ السنين التي وقعت فيها أهمُّ الحوادِثِ، وذِكْرِ اليوم أو الشهر أو المكان الذي حدثتْ فيه، فإن شيئًا من ذلك كلِّه لا يَعْنيهم ولا يَرَوْن فيه من خطر.

وكل ما يَعْنيهم من التاريخ هو أن يتعرَّفوا أسرارَ النفس الإنسانية، وميلَ الناس إلى الظلم والقسوة، والبعدِ عن الإنصاف، والاعتداءِ على غيرهم، بَغْيًا وجَوْرًا، وإذكاء نيران الحروب ـ في كل عصر من العصور ـ لأَتْفَهِ الأسباب، دون أن يحاسِبوا ضمائرهم على ما يقترفون من جرائمَ وآثام، وينظروا إلى نتائج أعمالهم السَّيِّئةِ التي تنتهي بالقتل والتدمير والخراب.

وليس يَعْني هؤلاء الأقْزامَ أن يحبِّبُوا الْعِلْمَ إلى كل إنسان؛ لأنهم يريدون أن يُقْبِلَ كلُّ فردٍ من أفراد الشعب على ما يُلائِمُ طبْعَه ومواهبه واستعداده من الفنون والعلوم والْحِرَفِ. وكثيرًا ما يَسْخَرُونَ ممن يَتَغالَى في الدرس والاطلاع، ويَرَوْن في ذلك ضررًا بليغًا عليه؛ فإن العقل ـ فيما يعتقدون ـ كالجسم سَواء بسواءٍ. وكما أن الجسم يُؤْذيه الإِفْراطُ في

الغِذاء فلا يَسْهُل عليه أن يَهْضِمَه، فإن العقلَ ـ كذلك ـ يؤذيه الإفراطُ في غذائه العلمي، فيُصاب بالتُّخَمَةِ التي تُمْرِضُهُ وتَضُرُّهُ، وربما أوْدَتْ به.

وليس عِنْدَ الإمبراطور ـ نفسِه ـ مكتبةٌ كبيرةٌ حافِلَةٌ بالْمُصَنَّفَاتِ العلمِيَّةِ والفنية، وقَلَّمَا تجد أحدًا يُعْنَى بإنشاءِ مكتبةٍ جامعة في بيته؛ فإذَا عُنِيَ أحد الخاصة بجمع الكتب، سَخِرُوا منه وسَلَكُوهُ في عِدادِ الْمَعْتُوهِينَ، وشبَّهوه بالحِمار يحمل أسفارًا من الكتب.

أما فلسفةُ هؤلاء الأقزامِ فهي غايةٌ في اليُسْر والسُّهولة؛ لأنَّها فلسفةٌ عملية لا تقوم على المجادَلاتِ اللفظية والمناقشات الْمُلْتَوِيَةِ المتشعِّبة، والبحوث الغامضة العميقة التي تُرْهِقُ الذِّهْنَ على غير طائل، ولكنها فلسفةٌ واضحة تقوم على قواعِدَ معقولةٍ وَتُؤْثِرُ التَّوَسُّطَ في الأمور، وتعلمُهم أن الشرفَ أَثْمنُ من المال، وأَنَّ الرجلَ العظيمَ هو الرجلُ الذي يستطيعُ ـ بقوَّةِ إرادَتِهِ ـ أن يَكْبَحَ جِماحَ أهْوائِهِ، وأن من يفعل ذلك جديرٌ أن تَسْمُوَ مكانَتُه على مكانة البطل الفاتح الذي يغلبُ الأعداءَ وينتصرُ عليهم في ميادين القتال.

وعندهم أن الفضيلةَ هي أُسُّ النجاحِ والفوزِ، ويَنْبوعُ السعادة والرفاهِيَةِ. وهم يتركون للإنسان أن يتخيَّرَ بنفسه ما يُلائِمه وَيَتَّفِقُ مع طبيعته من الأعمال، وله كل الحرية في ذلك من غير أن يُقَيِّدَ نفسه بِصناعة أبيه أو فَنِّه. وثمةَ ترى ابنَ الزارِعِ ـ مثلًا ـ قد رفعته مُؤَهلاتُه ومَزاياه إلى صُفُوف الوُزَراء، وابنَ الوزيرِ قد أصبح تاجِرًا؛ لأنه لا يصلح إلَّا أن يكون تاجرًا.

وليس لهذه الشُّعوبِ مَيْلٌ إلى الطَّبيعة والرِّياضة إلا بقدَرٍ معلوم، أي بحَسَبِ ما يحتاجون إليه في حياتهم وفنونهم المفيدة، وقَلَّما يُعَنُّون أنفُسَهُمْ بتفَهُّم أجزاء العالم وأسرار الطبيعة العميقة؛ فحسبُهُم أن يتمتَّعوا بِمَشاهِدِها الرائعةِ دون دراسَتِها. أما العلوم النَّظَرِيَّةُ والعقليةُ، فهى عندهم عَبَثٌ وخَيالاتٌ وأوْهامٌ لا طائِلَ تحتها.

٩ ـ آراءٌ وقَواعِدُ

وعندهم أن الأُسْلُوبَ الأدبيَّ يَجِبُ أن يجمعَ بين الجَمَالِ والوُضُوحِ ـ سواء في ذلك أسلوب النَّظْمِ وأسلوب النَّثْرِ ـ وهم يَمْقُتُونَ التكلُّفَ والإغْرابَ في اللغة، ويرَوْن من فساد الذوق والأنانِيَّةِ الْمَمْقوتَةِ أن يتَشَدَّقَ الإنسانُ بألفاظٍ غير مألوفة؛ ليتظاهرَ بأنه مُتَفَرِّدٌ بغَريبِ اللغة عن بقية مُعاصِرِيهِ.

وعندهم أن اللغة لم تُخْلَقْ إلَّا لتُؤَدِّيَ الأغراضَ بأيسرِ لفظٍ وأوضحِ بَيانٍ من غير تَصَنُّعٍ ولا لَبْسٍ. فإذا أغْفَلَ الكاتِبُ هذه الأُصولَ الْجَوْهَرِيَّةَ، ولجأ إلى الأسْلوبِ الْمُعَقَّدِ والاسْتِعاراتِ الغامِضَةِ، والكِناياتِ الغريبةِ، ونَبَا عن الأُسلوبِ السهل الصَّافي، كان موضعَ سُخريةِ الناس، وكان بَيانُهُ ـ في نظرهم ـ كأنه ثَوْبٌ مُرَقَّعٌ لا جَمالَ فيه ولا رَوْعَةَ.

وهم يَجْمَعُونَ ـ إلى عِنايتهم بتهذيب النفس ـ عنايَتَهُمْ بإصلاحِ الجسم، وتقوِيَتِهِ بِكلِّ وسيلةٍ من الوسائِلِ؛ لأنهم يعتقدون أن العِنايَةَ

بأحدهما ـ دون الآخر ـ لا تَكْفُلُ لهم وُجودَ الرَّجُلِ الكاملِ، ولا يَتَسَنَّى لإِنسانٍ أن يصل إلى مرتبة الرُّجُولَةِ الكاملة إذا أهمل العنايَةَ بأحدهما. وهم يُشَبِّهُونَ الْجِسْمَ والرُّوحَ بِجَوادَيْنِ قد شُدَّا إلى مركبة لِيَجُرَّاها معًا. وثَمَّةَ لا يرَوْن بُدًّا من أن تكون خُطُواتُهما متساويةً ـ في أثناء سيرهما ـ حتى لا يَخْتَلَّ التَّوازُنُ.

وعندهم أنك إذا قَصَرْتَ عنايتَك على تعهُّدِ عقلِ الطفل بالثقافةِ، وأهملتَ العنايةَ بجسمه، فإن الضعف واختلالَ الصحة كفيلان بإتلاف هذا الثَّمَرِ الشَّهِيِّ. على أنك إذا قَصَرْتَ عنايتك على تعهُّد جِسْمِه وأهملتَ العنايةَ بتثقيفه، فإن الحماقةَ والجهلَ يملآن عقْلَه؛ فلا يستطيعُ أن يؤدِّيَ لوطنه ما يَفْرِضُه عليه من الواجباتِ والفُرُوضِ.

وهم يَحْظُرُونَ على المدرسين أن يُعاقِبوا تلاميذهم عقابًا يؤذيهم في أبْدانهم، فحَسْبُهم أن يَحْرِمُوهُمْ بعضَ المَزَايَا التي تَطْمَحُ إليها نفوسُهم ـ إذا لم يجدوا بُدًّا من عِقَابِهِمْ ـ وكثيرًا ما يُعاقِبُونَ الطَّالِبَ بِحرمانه حُضورَ دَرْسَيْنِ أو ثلاثةٍ، فيكون لذلك العقابِ أبلغُ الأثر في نفسه.

وربما تظاهرَ الْمُعَلِّمُون أمام الطالب بأنهم لا يَرَوْنهُ أهْلًا للتعليم إذا لم يتعهَّدْ نفسَه بالإِصلاح، ويُقْلِعْ عن الوقوع فيما وقع فيه من خَطَإٍ.

وهم يبتعدون كلَّ الابتعاد عن ضَرْبِ الطالِبِ أو إِيلامِه؛ لأنهم يَرَوْنَ أن أمثالَ هذا العِقاب يُعَوِّدُهُ الخوفَ والجُبْنَ ـ منذُ نَشاءتِهِ ـ فلا يُشْفَى منهُمَا في مُسْتَأْنَفِ حياتِه.

الفَصْلُ السَّابِعُ

١ ـ دَسائِسُ الوُشاةِ

يَحْسُنُ بي أن أُطْلِعَ القارئَ على الدَّسيسةِ السِّريةِ المجرمةِ التي دبَّرها أعدائي رغبة في الكيد لي والانتقام مني، قبل أن أُغادرَ إمبراطورية «ليليبوت»، فَقَد أراد الأعْداء ـ بهذه الدسيسة ـ أن يَقضُوا على حياتي، وأبَى اللهُ إلَّا أن يُخَيِّبَ آمالهم، فكانت هذه الدسيسةُ سببًا في تعجيلِ خروجي من هذه البلاد، فِرارًا من التنكيل بي، وهَرَبًا من انتقام الوُشاةِ والدسَّاسين.

الحقَّ أقولُ: إنني لم أُخْلَق لتعلُّم واجِبات القصر، وما تقتضيه مناصبُ رجال الحاشية من مَراسِمَ، وليس لديَّ من الْمَهارة واللَّباقَةِ ما يُمْكِنني من مُجاراةِ هؤلاء الناس؛ فقد كانت صَراحة كلامي وقِلَّةُ احْتِياطي سببًا في إغضابِ الإمبراطورِ، ورأى أعدائي في ذلك ـ كما قلتُ ـ فرصةً سانِحَةً للكيد لي عِنْدَهُ. وما إن تأهَّبْتُ للسفر لزيارة إمبراطور «بليفسكو» حتى جاءني عظيم ـ من كبار رجال القصر ـ كان يَمْحَضُني الوُدَّ والنُّصْحَ ويُخلصُ لي أشدَّ الإخلاص، وكنتُ قد أسْدَيْتُ إليه صنيعًا ـ ذات يوم ـ فلم يَنْسَه لي. جاءني هذا الصديق خُفْيةً ـ وأنا جالسٌ ذاتَ ليلةٍ ـ على غير مَوْعِد، فعجبتُ من هذه الزَّوْرَةِ الْمُفاجِئة. وما اسْتقرَّ في بيْتي حتى أمر أَتْباعه بالانصراف، وأشار لي

بأنه سيُفْضِي إليَّ بحَديث سِرِّي ذي شأن، فصرفْتُ خَدمي وأغلقتُ البابَ، ووضعتُ صاحبي فوق مِنْضَدَتي، ثم أنْصَتُّ إلى حديثه إنصاتًا، فبدأ كَلامَهُ بالتَّحِيَّةِ؛ وما أتَمَّ تحيته، حتى لَمَحْتُ ـ على وجهه ـ أماراتِ الحزن والكَآبَةِ، فسألتُه ـ متعجبًا ـ عن سِرِّ حزنه وألمه، فقال لي:

«أرجو أن تُصْغِي إليَّ ـ يا صديقيَ العزيزَ ـ فإن الأمرَ جَلَلٌ؛ إذْ إنَّ حياتَك وشَرَفَك في خطر!».

فاشتد عجبي، وسألته عما يَعْنيه بذلك، فقال لي متأثرًا كئيبًا:

«لقد عقدوا ـ منذ زمنٍ قصيرٍ ـ عدة لِجانٍ سرِّية، وقد نَجَحَتْ بها مؤامَراتُهم الدنيئةُ، وأصدر المؤتمرون بك قرارًا مُفَزِّعًا. وما أظنك تجهل أن وزير الحربِ يُبْغِضك ويحسُدك وينتهزُ كلَّ فرصة لِلائْتِمار بك ـ منذ حللتَ هذه البلاد ـ ولستُ أعلم لهذا العِداءِ سببًا. على أن حِقْدَ هذا الوزير قد زاد عليك ـ بعد انتصارك الباهر على أهل «بليفسكو» وظَفَرك بأُسطولهم ـ فما إن رأى هذا الفوزَ حتى اضْطَغَنَ عليك اضْطِغانًا شديدًا، ونَفَسَ عليك هذا النجاحَ الذي كان يتمنى لو أصابه لِنَفسه. وقد اتفق ـ هُوَ ووزيرُ المال، وقائدُ الجيش، وكبيرُ الأمناء، وقاضي القضاةِ ـ على تدبير مؤامرة خبيثة جارِمَةٍ للانتقام منك وإهْلاكِك، فعَزَوْا إليك كثيرًا من التُّهَمِ التي لم تَقْتَرِفْ واحدةً منها، وزَعموا ـ فيما زَعموا ـ أنك قد أسأْتَ إلى الإمبراطورِ، وفي هذه التُّهَمةِ ـ وحدها ـ ما يُبَرِّرُ إهلاكَ».

وما إن سـمعتُ منه هذا الكلامَ حتى بلغ تأثُّرِي وحزني مبلغًا كبيرًا، فَأَردْتُ أن أُبَرِّئَ نفسي مما زَعموا، فطلب إليَّ ـ راجيًا ـ أَلَّا أقاطِعَه، وأن أُصْغِيَ إلى ما يقولُ ؛ فَسَكَتُّ عن الكلام، فقال:

«ثِقْ ـ أيها الصديقُ العزيزُ ـ أنني لم أَنْسَ لَك ما أسلفتَهُ إليَّ من صَنِيعٍ؛ وقد بذلتُ قُصارَى جُهدي في تعرُّفِ دقائقِ هذه الْمُؤامرة وتفاصيلها ؛ وانتهى سَعْيِي أخيرًا بالحصولِ على صُورة التقرير الذي كتبه خصومُك؛ وقد عَرَّضْتُ نفسي للهلاك في سبيل إنقاذِك، فلو انْكشفَ سِرِّي لما كان لي من عقابٍ إلَّا القتلُ».

٢ ـ فَرارُ الاتِّهامِ

ثم ناولَني قرارَ الاتهام، فقرأتُه مدهوشًا حائرًا، وإلى القارئ نَصَّهُ:

«**أولا**: نَصَّ قانونُ الإمبراطورية ـ في باب العقوبات ـ على أن كلَّ شخصٍ ـ أيًّا كان جِنْسُه ـ يدخل القصر الإمبراطوري من غير إذْن يعتبر مُسيئًا للإمبراطور، ويكون معرَّضًا للمعاقبة بأقصى العقوبات، وهو القتل، كما يَنُصُّ ـ في باب العُقوبات أيضًا ـ على أن كل من ألقى شيئًا من القاذورات على القصر الإمبراطوري يَستحقُّ القتل.

وقد ارتكبَ «عِملاقُ العمالقة» هاتين الجريمتينِ الشنيعتينِ، زاعِمًا أنه يريدُ إطفاء النارِ التي شَبَّتْ في حجرة الإمبراطورةِ العزيزةِ، فاقْتحم

فِنـاءَ القصر الإمبراطوريِّ ـ دون إذْنٍ من الإمبراطور ـ وأَلْقَى على النار ماءً قذرًا دنَّس به القصر. وكلُّ جريمة من هاتين الجريمتين تَسْـتَوْجِبُ العِقابَ بالقتلِ جَزاءً عادِلًا لمن يرتكبها.

ثانيًـا: بعـد أن تغلـب «عملاقُ العمالقةِ» على أسـطول «بليفسـكو» وأحضـره إلى هذه البلاد، أمره حضرةُ صاحـبِ الجلالةِ الإمبراطوريةِ أن يأتِيَهُ ببقية سـفن الأعداء؛ لتُصبحَ إمبراطورية «بليفسكو» مستعمرَةً تابعةً لإمبراطورية «ليليبوت»، وليتمكن جلالةُ الإمبراطورِ من مُعاقبة زُعمـاء الفتنة والثائرين الذين هربوا إلى تلـك البلاد، ويُنكِّلَ بهم جزاء تحريضهم على الثـورة والعِصيان، ولكنَّ «عمـلاقَ العمالقةِ» لم يُلَبِّ أمـرَ الإمبراطورِ، وأَبَـى إلَّا الإصرارَ عـلى عِصْيانه ومخالفتـه، معتذرًا بسـبب واهٍ هو اشْمِئْزازُهُ من الإقدام على خَنْق شعب نبيل، وإذلالِ أُمة حُرَّة بريئة.

ثالثًـا: لـم يَكَد يأتي سُـفَراءُ «بليفسـكو» ـ منـذ أيام قليلـة ـ إلى قَصْر «ليليبـوت» طالبين الصلح مع جلالة الإمبراطور، حتى تقدَّم «عملاقُ العمالقة» إلى جلالته، باذِلًا كل ما في وُسْـعِه لتخفيف العقاب، مُتَشَفِّعًا في أَعـداء الإمبراطور، وهو يعلمُ ـ عِلْم اليقينِ ـ أَن هذا الوَفْدَ يُمَثِّل أُمَّةً طالما ناصَبَتْنا العِداء، وشَـنَّتْ علينا حربًا ظالمةً، وليس لهذه الشَّفاعَةِ الْمُجْرِمة إلا معنًى واحد، هو خِيانَةُ الدولة والْكَيْدُ لها.

رابعًا: اعْتزم «عِمْلاقُ العمالقة» أَن يسـافر إلى «بليفسـكو» ـ بعد أَن خـانَ إمبراطورَنا ولم يُؤَدِّ لـه واجبَ الإخلاص والأمانة الْمَحْتُوم على

كل فرد من الرَّعِيَّة ـ وهو على أُهْبَةِ السفر إلى بلادِ الأعداء، من غير أَن يَحْصُلَ على إِذْنٍ رسميٍّ من جلالة الإمبراطور، مكتفيًا بإجازةٍ شفويةٍ، وفي هذا أكبر دليل على جُرْأته وخِيانته، وميله إلى مساعدة إمبراطور «بليفسكو» عَدُوِّنا اللدود».

٣ ـ مُناقَشَةُ التَّقْرِيرِ

ثُمَّ قال لي ذلك الصديقُ العزيزُ:

«إن هذا التقريرَ يحتوي أَدِلَّةً أُخرى لم أَشأ أَن أَنْقُلَها إليكَ، فقد اكتفيتُ بنقل أَهمِّها وأَعظمِها خطرًا، ولست أكتُمُك أَن جلالةَ الإمبراطور قد ناقش هذا التقريرَ وأَظهر مَيْلَهُ لِلاعتدال والعَطْف، وقرَّر ـ أَمام المجلس ـ أَن العدلَ يقضي عليه بأن يَعْفُوَ عنك ؛ وأَن حُسْنَ نيتك، وما أسلفْتَه إلى الدولة من ـ أعمال جليلةٍ ـ يُقَلِّل من مُؤاخَذَتِك، ويشفعُ لك في العفو عما أَلْصَقُوهُ بِكَ من تُهَمٍ شنيعة.

ولكن وزيرَ الحربِ ووزيرَ المالِ وقائدَ الجيشِ كانوا يميلون إلى الاقتصاص منك، وقتلك أشنعَ قِتلة. وقد اقترحوا أن يُوقِدُوا النارَ في مسكَنِك ليلًا، وأن يَقِفَ القائدُ ومعه عشرون ألفَ فارس معتمِدين قِسِيَّهُم، مُتحفِّزين لإطلاق سهامِهِم المسمومة ـ على وجهك ويديك ـ إذا حاولتَ الفِرارَ من الحريق!

ورأى غَيْرُهُمْ أن يَصْدُرَ أمرٌ سِريٌّ إلى بعض خدمك بأن يُلْقُوا في ثيابك عَصِيرًا سامًّا، لا يمس جلدك حتى يُمَزِّقَه تمزيقًا، ويَفْتِك بجسمك فتكًا ذَرِيعًا! وقد وافقَ القائدُ على هذا الرأي، ولكن جلالةَ الإمبراطور أصَرَّ على إنقاذِ حياتِك، وانضمَّ إلى رأي جلالته كبيرُ الأُمناء. وقد وافق أمينُ أسرار الحكومة «السكرتير» ـ حين سُئِلَ عن رأيه ـ على أن يُصْدِرَ الإمبراطور عَفْوه عنك ـ وأنت تعرف أنه من خُلَصائك ومُحِبِّيك ـ وقد اتفق معهم على أن التُّهَمَ التي أَلْصقوها بك خطيرةٌ حقًّا، ولكنَّ إخلاصَك وحسن نيتك جديران بالشفاعةِ فيما اقترفْتَه من جُرم. وقد طلبَ أن يخففوا العقوبةَ إلى أقصى حدودِ التخفيفِ.

وقال لهم ـ فيما قال ـ:

«إن صداقتي وإخلاصي لعملاقِ العمالقة معروفان لا سبيل إلى إخفائِهما، وربما كان ذلك مستوجبًا لِلظِّنَّة والرِّيبة في أمري؛ فقد يحسب بعض الناس أنني أُحابيه، ولكنني لا أَعْبأ بمثل هذا الاتهام ما دام في ذلك إرضاءُ ضميري وإرضاءُ الحقيقة؛ فأنا أرى أن تَذْكُرُوا جلائلَ أعماله، وأن يكونَ فيما أسلفَه من جميل الصُّنْع ما يخفِّفُ مِن محاسَبَتِنا له على جرائمِه.

ولا أحسَب أن جلالةَ الإمبراطور يأبَى أن يُنْقِذَ حياةَ هذا الرجل، مكتفيًا بفَقْءِ عَيْنَيْهِ، وفي هذا عِقابٌ رادِعٌ وتحقيق لرحْمة الإمبراطور وشفقتِه. وفي ظنِّي أن ذلك العِقابَ يُوافق مصلحةَ الدولة؛ لأن حياة

هـذا العملاقِ نافعـةٌ للبلاد، وهو قادرٌ ـ بعد ذلـك ـ على القيام بكل ما تَفْرِضُهُ عليه الدولةُ من الواجبات التي تحتاجُ إلى القوَّةِ الجِسْميَّةِ».

ولكنَّ جميعَ الحاضرين امْتَعَضُوا، وأصرُّوا على رفض هذا الاقتراح.

ثم قام وزير الحربِ غاضبًا ـ يكاد يَتَمَيَّزُ من الغيْظِ ـ وقال:

«إنِّي لَفي حَيْرَةٍ شديدة من هذا الرأي الفائل الذي أبداه لنا أمينُ أسرارِ الحكومة، وإني لفي أَشـد الدهشـة من إِشـفاقه على هذا الغادِرِ، وضَنِّه بحياة مجرم خائن للدولة. أمَّا الأعمال التي يزعُم أن هذا العملاقَ قد أدَّاهـا للدولة فهي ـ كمـا ينص القانون ـ جرائمُ شَـنِيعَة؛ فهو لم يُطْفئ النار إلا بعد أن ألقى على القصر ماء قذرًا.

وإن مـن يقـدر على إطفـاء الحريق ـ في لحظة واحـدة ـ يقدر كذلك على إغراقِ القصر والمدينة كلها من غير أن يُكَبِّدَه ذلك أي عناء ؛ وإنّ من يستطيعُ أن يتغلبَ على أسطولِ العدو بِمُفْرَده ـ إذا رَضِي ـ يستطيع كذلـك أن يَـرُدَّ أسـطولَ الأعـداءِ إليهـم إذا غَضِبَ ؛ وإن مـن يرفضُ أمـر الإمبراطـور، ولا يُلَبِّي إشـارتَهُ، لَهُـوَ رجلٌ خائنٌ للدولـة مُواطِئٌ لأعدائهـا. وليـس لهذا العاقِّ الغـادرِ من جزاءٍ ـ عـلى عُقوقه وغدره ـ إلا الموتُ العاجِلُ، فإذا تهاوَنْتُمْ في أمره أصبح حَرْبًا عليكم، وإلْبًا مع أعدائكم؛ فلا تترددوا لحظةً واحدةً في التخلصِ منه وإهلاكِه، دون أن تأخذَكُم ـ في ذلك ـ هَوادَةٌ، أو تَثْنِيَكم عنه رَأْفَةٌ أو رَحْمَةٌ».

وما سَـمِعَ وزيـرُ المالِ هذه الْحُجَجَ حتى أقَرَّهـا، وأعلن ارتياحه لما أبداه وزير الحربِ من السداد والحكمة، وأَصالة الرأي، وبعد النظر.

ثم قال وزيرُ المال مُعَقِّبًا:

«عـلى أن خِزانَـةَ الدولةِ قد نَقَصَتْ نَقْصًا عظيمًـا بما أنفقناه على هذا العمـلاق من المال الجسـيم، وإن كل يوم يمر على بقائه في هذه البلاد يُكبِّـدُ الدولةَ نفقاتٍ طائلةً لا تحتملها الْخِزانةُ العامةُ. أما هذه الطريقةُ العجيبةُ التي يراها أمينُ أسرار الحكومة، فهي أَضَرُّ علينا ـ وعلى البلاد ـ مـن بقائه سـالِمًا؛ فإنَّ فَـقْءَ عينيه ـ وإن أَضَـرَّ بِهِ ـ يَزِيدُ شَـهِيَّتَه للأكل، كما تدل على ذلك المشـاهدات والاختبارات، ولعلكم عَرفتم أن فَقْءَ عيون الطيور يَزيد شَهِيَّتَها للطعام، ويجعلها تَسْمَنُ بسرعة شديدة. ولا شكَّ أن جلالة الإمبراطور وأعضاء مجلسه كلِّه ـ الذي انعقد لمقاضاة «عمـلاق العمالقة» ـ مقتنعون كل الاقتناع بأنه ارتكب جرائم وخطايا تستحقُّ الإهلاك، وفي هذا مُسَوِّغٌ كافٍ لتنفيذِ أحْكام القانون بِلا تَرَدُّدٍ، أو مُناقشةٍ».

ولما كان الإمبراطور لا يوافق على القتل، قال للمجلس متلطِّفًا:

«إذا كنتم تَرَوْنَ أن فَقْءَ عينيهِ عِقَابٌ خفيفٌ، فَاشْـفَعُوهُ ـ إذا شـئتم ـ بِعِقاب آخر».

فتشجَّع أمين أسرارِ الحكومةِ حين سَمِعَ كلام الإمبراطور، والتمس مـن المجلس ـ في خُضوع ـ أن يسـمح له بالرد على قـول وزير المالِ، فلما أَذِنَ له المجلسُ، قال:

«وإذا كان وزيـر المـالِ يرى أن غِذاء هذا العمـلاق يكبد الدولة مالًا

طائلًا، فإن في قدرته ـ وحدَه ـ أن يعالج ذلك بطريقة أُخرى غيرِ الإهلاك، فيقلِّلَ من طعامه شيئًا فشيئًا، وبهذا ينتهي أمرُ العملاق إلى الضَّعْفِ والهُزالِ، وفِقْدانِ شَهِيَّة الأكل، ثم يُسْلِمُهُ ذلك إلى الموت».

وهكذا استطاع صديقُك أمين أسرار الحكومة أن يُقْنِعَهم بهذه الفِكرة، فاكتفَوْا بفَقْءِ عينيك وخَفْض طعامك حتى تَهْلِكَ جُوعًا. وقد سُجِّلَ ذلك في محضر الجلسة، وقرر المجلسُ إنفاذ هذا القرار بعد ثلاثة أيام. وسيجيئك أمين الأسرار ـ بعد مضي هذه المدة ـ فَيَتْلُو عليك هذا القرار، ويظهر ما أبْداه المجلس من الرحمة بك والشفقة عليك ـ حين اكتفَى بفَقْءِ عينيك ـ ثم يكتُم عنك بقية القرار؛ لأنهم آثَرُوا كِتْمانه.

وسيجيء ـ مع أمين الأسرار ـ عشرون جَرَّاحًا من مَهَرَةِ أطباء جلالة الإمبراطور، لِيَفْقَئُوا عينيك، بعد أن يُسَدِّدوا سِهامهم الحادَّة إلى حدَقَتَيْهما، وأنت مَطْروحٌ على الأرض.

وقد اعتقد جلالة الإمبراطور أنك سَتُذْعِنُ لهذا العِقاب، وترضَى به، بعد أن تعرِف أنهم قد عدَلوا عن قتلك.

والآن ـ يا صديقي ـ أرجو أن تأذَن في الانصراف خُفيةً، وقد أدَّيْتُ لك حَق الصداقة، وأخبرتك بكل ما دار؛ حتى تكون على بَيِّنَةٍ من أمرك».

ثم عاد هذا الصديق الوَفِيُّ ـ من حيث أَتى ـ وتركني وحدي مستسلمًا لهمومي وحَيْرَتي.

٤ ـ هُروبُ «جَلِفَر»

كانت هذه البلادُ ـ فيما عَلِمْتُ وكما أَثْبَتَ لي أكثرُ من عرَفت ـ مثالًا من أمثلة العدل والإنصاف، ولم يكن الحكام يستبدُّون بالرَّعِيَّة قَبْلَ عَهْد هذا الإمبراطور وأبيه وجَدِّه ـ كما أسلفتُ القول ـ ومتى ساد الْجَوْرُ، واستسلم الحاكِمُ لأهْوائه، كان ذلك مُؤْذِنًا بِسُوء الْمَآل.

وهكذا أثار هذا الإمبراطور ـ كما أثار أبوه وجَدُّه من قبلُ ـ كثيرًا من الفِتَنِ التي نَجَمَت عن استبداده في الحكم، وما جرَّه هذا الاستبداد من خَلق الْمُشْكِلاتِ التي لا تعود على البِلاد بالنفع. وكان من سُنَّة هذا الإمبراطور التي سارها وارتضاها ـ ولم يَشْرَكْهُ فيها أحد من أسْلافه ـ أنه كان يُصدر أشنع الأحكام في أتْفَه الذُّنوب، ثم يُعلنها مُمْتَنًّا على شعبه بها، على الرغم مما فيها من ظلم وإرْهاق، متغنِّيًا بِصفات العطف والرحمة والشفقة التي ميَّزه الله بها عن سائر الحكام.

وثَمَّةَ تمتلئ قلوبُ الناس رُعْبًا وهَلَعًا كُلَّما سَمِعوه يتغنى بذكر الرَّحمة والشفقة والعدالة؛ فقد طالما ألفوا ـ في أمثال هذه الألفاظ ـ مقدماتٍ لأقصى الأحكام الجائرة!

أما أنا فقد غَرِقْتُ في بحر من الهُموم، وتَحَيَّرْتُ في أَمري، ماذا أَصنع؟ وكيف أَقول؟ وهل أُقابل هذا الْحُكْمَ راضِيًا مستسلمًا من غير أن يَسمع القضاة دِفاعي عن نفسي؟ على أنني كنت واثقًا كل الثقة أَلَّا فائدةَ من

ذلك لو دُعِيتُ إلى مجلس القضاء. ولقد شـهِدْت بنفسي قضايا لا تكاد تختلـفُ عن قضيتـي هذه، ورأيـت كيف انتهـت وَفْقَ رغَبـات القُضاةِ والحكام، دون أن يسمع لِمُتَّهَم قولٌ مهما يكن صادِقًا محِقًّا.

وتحرَّكَـتْ في نفسـي رغبـةٌ جامحـةٌ إلى الانتقام من هـؤلاء الأقزام الضِّعاف، ودكِّ إمبراطوريتهم على رُءُوسـهم دَكًّا؛ فقد كان من اليسـير على مثلي ـ وأنا حُرٌّ طليقٌ ـ أن أقذف مدائنهم بالأحجار، وأُدَمِّر حاضِرَةَ بلادهم في زمن يَسِير.

ولكنني ذكرتُ اليمين التي أَقسمتها للإمبراطور، وذكرت ما غمرني به هو وشعبه ـ حين قَدِمْتُ عليهم ـ من فضْل وعطف وتكريم، ورأيت أن أَدْفَعَ الإِسـاءةَ بالإِحسـانِ، وأن أكتفيَ بالْهَـرَب من هذه البلاد؛ فقد كنتُ على يقين أن قضاءَ ذلك المجلس لابُدَّ نافذٌ، وأن من سوء الرأي والْخَطَلِ أن أطمع في الاحتفاظ بعيْنَيَّ وحريتي وحياتي، بعد أن أصدر ذلك المجلسُ قَضاءه الْمُبْرَمَ في أمري.

وقـد زادني إيمانًـا بهذه العقـدة أَنني رأيت كثيـرًا مـن الْمُتَّهَمين قد حُوكِمُـوا في جرائـمَ ـ أقلَّ خطرًا من جُرمـي ـ دون أن تأخذ القضاةَ في أمرهم هَوادَةٌ ولا رحمةٌ.

وثَمَّـةَ انتهـزت فرصـة التَّرْخِيـصِ الشـفويِّ الـذي ظفِـرْتُ بـه من الإمبراطـور لإِعداد العُدة إلى «بليفسـكو»، وبـادرت ـ قبل أن تنقضيَ الأيام الثلاثة التي أَجَّلَ بها مَجْلسُ القضاء إنفاذَ حكمه ـ فأرسلت كِتابًا

إلى صديقي أمين أسرار الحكومة بما استقرَّ عليه عزمي: من السفر ـ في ذلك اليوم ـ إلى «بليفسكو» بعد أن ذكرت له ـ في ذلك الكتاب ـ أنني إنما أفعل ذلك بعد أن رَخَّصَ لي جلالة الإمبراطور .

ولم أنتظر رَدَّه على كتابي، فسرت ـ مُجِدًّا في سيري ـ حتى وصلتُ إلى شاطئ الجزيرة حيث الأسطولُ، فأخذتُ سفينةً حربيةً كبيرةً، وربطت حبلًا في مقدمتها، ثم رفعت مِرْساتَها، وخلعتُ ملابسي ووضعتها هي وغطائي في تلك السفينة، وجذبتها إلى الماء، وما زلت سابحًا ـ طورًا أعتمد عليها، وطورًا أسبح إلى جانبها ـ حتى وصلتُ إلى ميناء «بليفسكو»؛ حيث رأيت الشعب ينتظر قدومي بشوق شديد منذ زمن طويل. وقد قدَّموا إليَّ مُرْشِدَيْن سارا بي إلى عاصمة بلادهم. وقد رفعْتُهما بيدَيَّ حتى وصلنا إلى باب المدينة، ثم رجوتُ مِنْهما أن يُبلِّغا أحدَ الوزراء نبأ قُدومي،وبَقِيتُ في مكاني، وأنا أُراقِبُ أمر جَلالة إمبراطور هذه البلاد. وبعد ساعة من الزمن جاءني الرد بأنَّ جلالة الإمبراطور وجميع الأُمَراء والوزراء قادِمون لاستقبالي، فتقدَّمْتُ بِضْعَ خطواتٍ حتى لَقِيتُ الإمبراطورَ وحاشِيَتَهُ ـ وَهُمْ على جِيادهم ـ ورأيت الإمبراطورةَ وحاشيتها قد خرجن مع الإمبراطور لاستقبالي، فاستلقيت على الأرض ليتَسنَّى لي أَن أُقَبِّل يدي الإمبراطور والإمبراطورة.

وقد صادَفْتُ من إكرام القَوْم، وحسن لِقائهم، واحْتفائهم بي، ما لا أَستطيع أَن أَصفه، وقد قلت لجلالة الإمبراطور:

«إنني جئت إلى بلاده ـ بَرًّا بِوَعْدِي ـ بعد تَرْخِيصِ إمبراطور «ليليبوت».».

ولم أَشَأْ أَن أُحَدِّثَهُ عن غَدْرِ ذلك الإمبراطور ورجالِه بي، ثم قلت له:

«إنني مستعدٌّ لتلبية كلِّ ما يأمرني به جلالته، إلَّا فيما يعود على إمبراطور «ليليبوت» بالْخَسارَةِ والضَّرر».

وما أَحسَبُ القارئ يطمع مني في تفصيل ما شَمِلني من الْحَفاوة والابتهاج والتلطف والعناية في هذه البلاد؛ فإن ذلك يحتاج إلى إسْهابٍ وتَطْويلٍ، قد يُضْجِران القارئَ؛ إذ لا يجد فيهما فائدة تعود عليه.

وحَسْبُ القارئ أن يعلم أَنني كنتُ على أسعد حالٍ، وأَهنإ بالٍ. ولم يكن يُعْوِزُني ـ في هذه البلاد ـ إلَّا وجود بيت أسكنه، وسَرير يُناسِبُ حجمي. ولِذلك اضطُرِرت إلى افْتِراشِ الأرض، مُلْتَحِفًا غِطائي الذي جئتُ به إلى هذه البلاد.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

١ ـ زَوْرَقُ الْخَلَاصِ

وبعـد ثلاثة أيامٍ من وُصولي إلى تلك البلاد الجميلة، خرجت لأتنزَّه على شـاطِئِ الجزيرة الْمُشْرِف على الجهة الشماليَّة الشرقية، وأنا أتأمَّل في جمـال البحر، فرأيتُ ـ على بُعد نصف ميلٍ ـ شـيئًا يتحرَّك ويتقاذفه الْمَـوْجُ، فلم أسْـتَطِعْ أَنْ أَتبيَّنَه بُوضُوحٍ، وإن كان يلـوحُ لي ـ من بَعيدٍ ـ أنه سـفينة مقلوبةٌ. فخلعت حِذائي وجَوْربي، وسـرت في الماء خَوْضًا نحـو ثَلاثمائـة متـرٍ، فَرَأيت ذلـك الشَّـبَحَ يندفـع ـ إلى ناحيتـي ـ بقوَّة شديدة، فعلمتُ أن قوَّة الْمَدِّ تَدْفَعُه إلى الشاطئ. ولما اقترب مني قليلًا استطعت أن أَتبيَّنَهُ بوُضوح، فإذا هو زورق كبير.

فـدار بِخَلَدِي أن عاصِفَةً من العواصف قد فصلته عن السـفينة التي شُدَّ إِليها، فعُدْتُ أَدراجي إِلى الْمَدينة، والتمست من جلالة الإمبراطور أن يُعِيرَني عشرين سفينةً من السفنِ الكبيرةِ التي بَقِيَتْ عنده ـ بعد أن فقدَ أُسطوله ـ وأن يَصْحَبَني ثلاثَةُ آلافِ ملَّاحٍ، ومعهم رُبَّانهم. فأجابني إلى مُلْتَمَسي في الحال، وسارت السفن تَشُقُّ عُبابَ البحرِ مسرعةً، وذهبتُ أنا من أقرب طريق إلى الشاطِئِ، فرأيت أن الْمَدَّ قَرَّب الزورقَ، فأصبح على مسافة قليلة من الْيابِسِ. ولما دانَتْني السفن، نَزَعْتُ ثيابي وسِرْتُ في

الماء متقدِّمًا نحو مائة متر، ثم سَبَحْتُ قليلًا حتى وصلت إلى الزَّوْرَقِ. وألْقَى الملَّاحون إِليَّ حبلًا متينًا، فربطت أحد طَرَفيه بِحَيْزوم الزَّوْرقِ، وشَدَدْتُ الطَّرَفَ الآخر إلى سفينة قريبة، وسَبحت خلفَ الزورق، ودَفعته بإِحدى يديَّ، وساعدني الْمَدُّ في التقدم إلى الشاطئ، ولَمَّا رأيت الأرض قريبة منِّي، وقفت على قدميَّ، واسترحتُ دقيقتين أو ثلاثًا، ثم دفعتُ الزورق بقُوة ـ وقد غمرني الماء إلى إِبطَيَّ ـ وقذفُوا إليَّ بحبالٍ أُخرى، فشدَدْتُها إلى الزورق على بُعد أربعين مترًا على الشاطئ. وصَبَرْتُ حتى انتهى وَقت المدِّ وأَعْقَبَهُ الْجَزْرُ، فانحسَرَ ماءُ البحْر، واستقرَّ الزورق على اليابِسَةِ. وساعدني ألْفا رجلٍ ـ بقوَّتهم وحِبالهم وآلاتِهم ـ على رفع الزورق؛ ففحصتُ عَنْهُ لأطمئن عليه؛ فلم أجد فيه إلا عَيْبًا يسيرًا.

ولم تَمُرَّ عليَّ عشرةُ أيام حتى أصلحتُ الزورق، وأدخلته ميناء «بليفسكو»، فاحتشد جُمهورٌ كبيرٌ مِنَ الشعبِ ليشْهَدُوا هذه السفينة التي لم يروْا لها مثيلًا في كِبَر حجمها، وقد عجِبوا من ضَخامتها أَشدَّ العَجب.

٢ ـ بينَ الإمبراطورَيْن

ولم أستطِعْ أن أكتُمَ فرحي عن إمبراطورِ «بليفُسْكو»، فقلتُ له مبتهجًا:

«إنَّ حُسْنَ حَظِّي قد ساقَ إليَّ هذا الزورقَ لِيُقِلَّني (لِيَحْمِلَنِي) إلى أيِّ مكان آخرَ أرْحَلُ منه إلى بلادي».

والتمستُ منه الإذْنَ في السفرِ ـ بعد أيامٍ ـ فأذِن لي في ذلك بعد إلحاحٍ طويـل؛ فقد أظهر لي حِرْصَه الشـديدَ على بقائـي ضَيْفًا في بلاده، ولكنَّه أجابَني إلى طِلْبَتِي، بعد أن أظهرتُ له حنيني إلى وطني وأهْلي.

أما إمبراطورُ «ليليبوت» فقد كَفَّ عن مُطَارَدَتي ـ عَقِبَ خُروجي من بِلادِهِ ـ وكان يحسَبُ أنني لا أعرِف شيئًا عن حكم مجلس قضائه عليَّ، ورغبته في الانتقام مني. فاطمأنَّ ـ بادئَ الأمر ـ وَظَنَّ أنني سـأعودُ من «بليفسكو» إليه بعد أيامٍ قليلةٍ، بَرًّا بوَعْدي إيَّاه.

فلما طالت غَيْبتي، اشتد قلقه، وعقد مجلس الشُّورى، فقرر المجلس اسْـتِدْعائي إليه، وأرسـل إلى إمبراطور «بليفسكو» رسولًا يطلب إليه أن يساعده في إرسالي إلى «ليليبوت» لتنفيذِ قرارِ الإمبراطورِ!

وقد أخبر الرسـولُ إمبراطور «بليفسـكو» أن إمبراطـور «ليليبوت» قـد اكتفى بفَـقْءِ عينَيَّ، وأنني قد فَـرَرْتُ هارِبًا من القِصـاصِ العادِلِ، وأنني إذا لم أُلَبِّ دعوة الإمبراطور، استردَّ مني لقب «مُرداك»، وأعلن اتِّهامي بالخيانة العظمى، ثم قال الرسولُ، فيما قالَ:

«إن جلالةَ مولاهُ الإمبراطورِ يأمُلُ من جلالةِ إمبراطور «بليفُسْـكو» أن يُصْدِرَ أَمرَهُ ـ حِرْصًا على السَّلام والصَّداقة ـ بإعادتي مَغْلولَ اليدين والقدمين إلى «ليليبوت»؛ ليُوقِعَ بيَ الجزاءَ العادلَ الذي اقتضته إرادةُ جلالته».

فعقد إمبراطور «بليفسكو» مجلس الشُّورى، وظلُّوا يَتَدَاوَلون الرَّأْيَ ـ في أَمـري ـ ثلاثـة أَيام، ثم قرَّ قَرارُهم على الرفض. فأرسـل إمبراطور «بليفسكو» كتابه ـ رَدًّا على إمبراطور «ليليبوت» ـ وكان غايةً في السَّدادِ والْحِكْمَة، وقد قرر فيه أَنه لا يستطيعُ ـ بِحالٍ من الأحوال ـ أَن يُجيبَ الإِمبراطور إلى طِلْبَتِه، وأن هذا الضيف ـ وإِن كان قد سَـلَبه أَسـطوله ـ قد قام إِزاءَ ذلك بأعمال جَليلة، وكان خيرَ وَسيطٍ في إِبْرامِ صُلْحٍ عادِلٍ مُشَـرِّفٍ بين البلديْن. وليس من كَرم الضِّيافة أن يُسْلِمَ الْمُضيفُ ضيفَهُ إلى خَصْمه لينتقم منه.

ثُمَّ قال في خِتامِ كِتابه:

«على أننا سـنتخَلَّصُ منه بعد أيام قليلة؛ فقد وَجد على شاطئ البحر سفينةً عظيمةً، تستطيع أن تحمله إلى وطنه.

ومتـى غادر بِلَادَنا، خلصت الإِمبراطوريتانِ مِمَّا يُكَبِّدُهما العملاقُ الهائلُ منْ أموالٍ كثيرةٍ».

فعاد الرسولُ إلى «ليليبوت»، وسلَّمَ إلى إمبراطورها ذلك الكتاب.

ولا عِلْـمَ لي بمـا حـدث هنـاك، ومـا أَدْرِي كيـف وقـع الكتاب من نفوسـهم بعد أن قرءُوا ما فيه. وقد قص عليَّ إمبراطور «بليفسكو» كل ما وقع، وأَثْبَتَ لي في أُسلوب رقيقٍ أنه يُرَحِّبُ ببقائي ـ إذا شئتُ ـ طُولَ عمري.

٣ ـ في عُرْضِ البَحْرِ

على أن حَنيني إلى وطني، ورَغبتي في التخلُّص من الغُرْبَةِ، قد جعلاني لا أتـردد في عزمِي على الرحيلِ، فرجَوْتُ من الإمبراطور ـ مُتلطِّفًا ـ أن يأذَنَ لي في السَّفرِ، وقلت له:

«مـادام الْحَـظُّ قد سـاقَ إليَّ هذا الـزورق، فإنني على ثِقَـةٍ أن العِناية الإلهيةَ قد شاءت خَلاصي ورُجوعي إلى وطني، دون أن أكون سَببًا في وُقوعِ حَرْبٍ جديدة بين البلدين».

ولسـت أظُـنُّ أن الإمبراطور قد اسْـتاءَ مـن هذه الصَّراحَـةِ، بل إني لأحسَبُه قد ارْتاح إلى طلبي هذا؛ تخلُّصًا من نَفَقاتِ غِذائي الْمُرْهِقَة.

وبعد أيام قليلة أتممْتُ صُنْعَ شِـراعَيْن للزورق ـ بعد أن ساعدني في ذلك خَمْسُـمائة عامِلٍ من أمْهر عُمَّالهم ـ ثم جمعتُ كثيرًا من الحبال المتينـة، وضَمَمْـتُ بعضها إلى بعض، فصارت حبلًا وحدًا؛ فشـدَدْتُ إليه صخرةً كبيرةً؛ لتكون لي مِرساةً تَقِفُ الزورقَ متى شئتُ. ووضعت في زورقي شـحم ثلاثمائة ثورٍ؛ ليكون عونًـا لي عند الحاجة، وقطعت كثيرًا من الأشجار الكبيرة لأتَّخِذَ منها سارِيَةً ومجاديفَ.

ولم يَمُرَّ عليَّ شـهر حتى تأهبت للسـفر؛ فحزن الإمبراطور ورجال حاشـيته لرحيـلي، وودَّعـوني وَداعًا حـارًّا. فاسْـتَلْقَيْتُ عـلى الأرض؛ لأتمكَّنَ من لَثْم يد الإمبراطور، وتَوْديع الأمراء والوزراء.

obeikandl.com

وقد أهدى إليَّ الإمبراطور هديَّةً نفيسةً، كما أهدى إليَّ صورته، ثم استقْلَلْتُ الزورقَ، بعد أن وضعتُ فيه لَحْمَ مِائَةِ عِجل وثلاثمائة خروف، وكثيرًا من الخبز والماء، وجملةً عظيمةً من القَديد (اللحم المُجَفَّفِ) أعدَّه لي أربعمائة قزَم من طُهاة الإمبراطور، وأخذت معي ـ إلى ذلك ـ سِتَّ بقرات، وسبعة ثيران، وعدة نِعاجٍ وكباشٍ، كلها على قَيْد الحياة.

وإنما رأيت أن أحملها معي إلى بلادي لتكون شاهِدًا على إقامتي في تلك البلاد. وكذلك وضعت في زورقي شَيئًا من الشعير والْحِنْطَةِ. وكان بِوُدِّي أن أصْطَحِبَ ستةَ أقزام، ولكن أبَى عليَّ الإمبراطورُ ذلك، وأخذ عليَّ عهودًا ومَوَاثِيقَ ألَّا آخُذَ معي أحدًا من الأقزام؛ ولو كان ذلك بِمَحْضِ اخْتِياره. ثم أمر بتفتيشي ـ حتى يطمئن على ذلك ـ فلم يجد في جيوبي أحدًا من رَعِيَّتِه.

وقد أبحرت في الساعةِ السادسة منْ صباحِ اليومِ الرابعِ والعشرينَ من سبتمبر سنة ١٧٠١م، وقطعتُ نحو ستة أميالٍ صَوْبَ الشَّمال، وكانت الرِّيحُ تَهُبُّ من الجنوبِ الشَّرْقيِّ، فوصلت ـ في الساعة السادسة مَساءً ـ إلى جزيرةٍ صغيرة من الشَّمال الشرقيِّ، طولها نحو نصفِ ميلٍ.

فاقتربتُ منها حتى وصلت إلى شاطئها، فأَلْقَيْتُ الحجر حيث رَسا الزورق، وجُلْتُ في الجزيرة قليلًا، فعلمت أنها غير مَأْهُولة. فأكلت من الطعام الذي أحضرته معي، وشرِبت، واسترحْتُ قليلًا من عَناءِ السفر، ثم استسلمت للنوم. وظلِلْت في نومي زُهاءَ سِتِّ ساعات،

ثم استيقظتُ. وبعد ساعتين أشرق الصباح، فأفطرت، وكان الهواء ـ حينئذ ـ مُعْتدلًا، والجو صافيًا.

ثم رَفَعْتُ الْمِرْساةَ من مكانها، ووضعتها في الزَّورق، وسرت في عُرْضِ البحر مُيَمِّمًا جهة الشمال الشرقيِّ، لعلِّي أَصلُ إلى إحدى الجزائر المعروفة، وبَقِيتُ طُولَ يومي لا أهتدي إلى مكانٍ أَستقرُّ فيه.

٤ ـ العَوْدَةُ إِلى الْوَطَنِ

فلما جاءَ اليوم التَّالي، كنتُ قد قطعتُ ـ إِذا لم يخطئْ حِسْباني ـ نحو أربعةٍ وعشرينَ مِيلًا، وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر، فَرأيتُ سفينة مُتَّجِهَةً إلى الجنوب الشرقي، فنشَرْتُ شِراعي مُستنجدًا بها، وبعد نصف ساعة لَمَحَني مَنْ في السفينة، فرفعوا العلَم فوقَها، وأطلقوا مِدْفَعًا ؛ فعلمتُ أنهم قد فَطَنوا إليَّ، وأيقنتُ بالخلاص.

وليس في مَقْدُوري أن أَصِفَ للقارئ ما غَمرني من الفرح والسرور حين تحقَّق أملي في الخلاص، واقتربَتْ ساعَةُ الرُّجوعِ إلى بلاديَ المحبوبةِ، وحانَ أن أرَى أُسْرتي وأَهْلِي بعدَ يأسٍ من اللِّقاء!

وَطَوَتِ السفينةُ شِراعَها، وما زالتْ سائرةً حتى اقترَبتْ من زورقي في الساعة الخامسة ـ أو السادسة ـ مَساءً. وما إن رأيْتُ عَلَمَ بِلادي مَرْفوعًا عليها، حتى امتلأت نفسي سرورًا وابتهاجًا، وشكرتُ

ـ للهِ تعالى ـ هذا التوفيقَ الذي يَسَّرَتْه لي عِنايتُه. ثم وضعتُ البَقَراتِ والخِرفانَ في جَيْبي، وصَعِدْتُ إلى ظَهْرِ السَّفينة، بعد أن أَخذتُ من زورقي كل ما كان فيه من طعام.

وكانت هذه السفينة التِّجارية قادِمَةً من «اليابان» قاصِدَةً إلى «إنجلترا». وكان رُبَّانُها من أمْهَرِ مَلَّاحِي عصره وأَشْرَفِهم نَفْسًا. وكان في السفينة نحو خَمْسين بحارًا. وقد لَقِيتُ فيهم أحد أصدقائيَ القدَماء، فتعارَفْنا ـ عَوْدًا على بَدْءٍ ـ وحَمِدنا اللهِ تعالى هذه الْمُصادَفَةَ السعيدةَ. وقد أَحسن الكلام عني ـ مع رُبَّانِ السفينة ـ ومدحني بما شاء له أدبُه ووفاؤُه وإخلاصه.

وقد احْتَفَى بي ذلك الصديقُ وسألني ـ متلهِّفًا ـ أن أُحَدِّثه عن سبب وجودي منفردًا في هذا الزورق الصغير، ومن أين أتيت وإلى أين أقصد.

فَأَوْجَزْتُ له قِصَّتي، فلم يُصَدِّقْها، وَحَسِبَ أن آلامَ السفرِ ومتاعِبَ البحر قد أَثَّرت في عَقْلي وأعْصابي، وجعلتني أَهْذِي، ولا أَعرفُ ما أقول.

وأدركتُ ما يجولُ بنفسه من الشُّكوك والرِّيَبِ فيما قَصَصْتُهُ عليه، فأخرجت من جيوبي ما أحضرتُه من البَقَر والْخِرْفان، فتملكَته الدهشةُ والْحَيْرَةُ، وأيقن بِصدق ما قصصته عليه، ثم أَرَيْته ما أحضرته معي من دنانيرِ تلك البلاد، وصورة إمبراطور «بليفُسْكو»، وبعض التُّحف النادرة

التـي أحضرتها معي من هذه البلاد. وأعطيته شـيئًا مـن تلك الدنانيرِ، ووعدتُه بأن أُهْدِيَ إليه بقرةً ونعجةً حين نَصِلُ إلى «إنجلترا»!

وما أحسَـبُني في حاجـة إلى أن أَقُصَّ عـلى القارئ تفاصيـل العَوْدَة؛ فهي لا تَعنيه، ولم يقع فيها مما يستحقُّ الذِّكر إلا حادث واحد حزَنَني كثيرًا؛ فقد اختطفت فأرةٌ من فئران السفينة إحدى نعاجي!

وقـد وصَلْنـا إلى الوطـن سـالِمينَ في الثالـث عشـرَ من أبريل سـنة ١٧٠٢م، وأنزلتُ ماشِـيَتي إلى البـر، وأحللتها مَرْعًى خصيبًا في مَلْعَبِ كُرةٍ في ضاحِيَةِ «جرينوِتش».

وقد فَرِحَ أهْلي وأولادي وأصدقائي ـ بعودتي سالمًا ـ فرحًا لا يوصف، وَنَعِمْتُ بقُربِهم شَهْرَيْن، وقد جَبَيْتُ أمْوالًا كثيرة في أثناء إقامتي بينهم؛ إذْ عَرضتُ تلك الحيواناتِ الصغيرةَ على طائفة الخاصّةِ، وسَراةِ البلاد، وفَرَضْـتُ على من يرغـب في رُؤْيَتِها ثمنًا معتدِلًا، فـكان الإقْبال عليها عَظيمًا، ثم عَرَضْتُها ـ بعد أيام ـ على سَـوادِ العامَّةِ، وجَمْهَرَةِ الشَّـعْبِ، فلم يكنْ لهم شُغْلٌ سِواها، فَرَبِحْتُ بذلك أَرْباحًا كَثِيرَةً، وبعد شَهْرَيْنِ بِعْتُها بِستِّمائة جُنَيْهٍ إنْجليزي.

وهكَـذَا صَفا ليَ الزَّمانُ، وارْتاحَ بالِي مـن الْعَناء، وقضيتُ في وطني شهرين، وأنا عَلى خَيْرِ ما أكونُ من رَفاهِيَةِ الْعَيْشِ، وراحَةِ النَّفْسِ.

الرِّحلة الثانية
في بلادِ العَمالِقَة

الإمام

جوناتان سويفت[1]

مؤلف رحلات «جلفر»

ولد «جوناتان سويفت» في «دوبلن» يوم ٢١ من نوفمبر سنة ١٦٦٧م. وهو من سلالة أسرة قديمة في كنتية «يورك»، وقد تزوج جده «توماس سويفت» «إليزابيث دريدن» خالة الشاعر «دريدن» المشهور، وكان «جودوين سويفت» ـ أحد أعمامه ـ من رجال القانون في «دوبلن»، وكان والد المؤلف مدير الفندق في هذه المدينة.

وقد ولد «جوناتان سويفت» بعد موت أبيه، وكانت أمه لا تملك شيئًا من حطام الدنيا، ولا تكاد تجد الوقت ـ فاضطرت إلى التماس المعونة من بعض أقاربها ، ثم نزحت تلك الأرملة الفقيرة إلى «ليستر»، واضطرت اضطرارًا إلى أن تسلم طفلها إلى مرضع رحلت به إلى «وتهافن» بإنجلترا، وأبقته عندها حتى بلغ السادسة من عمره، ولكنها حين عادت به إلى «دوبلن» كان قد بدأ يعرف القراءة.

ولقد كان في هذه السن شرسًا ، مفتول الساعدين، مرهوب الجانب، وكان مملوءًا صحة ونشاطًا ، ولم يستطع عمه أن يبقيه عنده ، فأدخله مدرسة «كيلكني» ثم ألحقه في عام ١٦٨٢م بمدرسة «لاتربنتييه» في القسم الداخلي، وتولى الإنفاق عليه، ولكن «سويفت» لم يلق نجاحًا في حياته الدراسية ـ برغم ذكائه الحاد ـ فقد كان أسوأ مثال للطالب، وكان لا يفتأ يتشاجر مع أقرانه، ويعاقبه مدرسوه على شراسته. على أنه كان مولعًا أشد الولع بالمطالعة، وكان من الطبيعي أن تنتهي حياته المدرسية بالخيبة والإخفاق ، ولكنه جاز ـ مع ذلك ـ امتحان البكالوريا بنجاح؛

(١) اقتبسنا هذه الكلمة من ترجمة «سويف» لتكون عونًا لحضرات المدرسين على فهم حياة مؤلف هذا الكتاب .

فأدهش نجاحه كل أساتذته الذين كانوا يترقبون ـ بملء الثقة ـ رسوبه في الامتحان.

وما إن التحق بالجامعة حتى صار خلقًا آخر، وأصبح ذلك المثال السيئ، خير مثال للطالب النابغ الممتاز، واشتد شغفه بالعلوم، لا سيما علمي التاريخ والتشريع.

ولما نشبت ثورة سنة ١٦٨٨م كان في العشرين من عمره، فسافر إلى إنجلترا خالي الجيب، لا يملك شيئًا، وقد سافر إلى «ليستر» على قدميه، رغبة في استشارة أمه في اختيار المهنة التي يحترفها.

فرأت أمه في ذلك فرصة حسنة؛ فقد كانت أشد فقرًا من ولدها، وكانت في حاجة إلى معونته، وكان لها قريبة اسمها السيدة «تمبل» متزوجة رجلًا اسمه السيد «وليم تمبل» أحد كبار رجال الحكومة المعدودين، وكان من الموثوق بهم، فألحق الشاب «سويفت» بوظيفة سكرتير، بمرتب ٥٠٠ فرنك في السنة، ولكن «سويفت» الشاب المتوثب الطموح لم يكد يلتحق بهذه الوظيفة حتى دب في نفسه دبيب الملل منها.

ولعل ذلك الملل ناشئ من ضآلة مرتبها؛ أو لأنه كان يضطر اضطرارًا إلى تناول الطعام مع رئيس خدم الفندق في المطبخ، وقد حدث له أثناء وجوده مع السير «وليم» أنه حشد ضد الأرستقراطية كل ما في نفسه من الأحقاد والآلام التي ظهرت آثارها العميقة في كتاباته. وما أجدرنا أن نبادر فنقرر بأن أحقاده تلك لم يكن لها مسوغ؛ فقد كان «الشفالييه دى تمبل» يغمره دائمًا برعايته وإخلاصه وفضله. ولما اعتزل ذلك السياسي الشيخ وظيفته ووهب وقته لغرس حديقته ودراسة الأدب أصبحت وظيفة «سويفت» السكرتير الشاب هينة سهلة، وصار عنده من فراغ الوقت الذي يختص به أعماله الشخصية ما يساعده على تحقيق رغباته، وقد مهد له اتصاله بالسير «وليم» السبيل للوقوف على أسمى المعارف الإنسانية، ولم يكن هذا الشاب ليجد مرشدًا له خيرًا من هذا الشيخ، وقد اتسعت مواهبه ونمت مزاياه الباهرة الخارقة نماء سريعًا.

وكان السير «وليم» أول من لمح فيه ذلك النبوغ وقدمه إلى الملك

«غليوم الثالث» فقدم له فصيلة من الدراجون، ولكن «سويفت» لم يكن ذا نزعة عدائية حربية بل كان يميل إلى البقاء في الدير ، وأراد السير «وليم» أن يدخله مكتب حامل الأختام، فرفض هذه المهنة أيضًا.

وفي سنة ١٦٩٣م ظفر بدرجة دكتور في المثيولوجيا (علم الأساطير) ثم صار قسيسًا، وأصبح بفضل رعاية الملك وعناية السير «وليم تمبل» ظافرًا بتحقيق شيء من أطماعه التي كانت منصرفة إلى الوصول إلى أسمى المراتب الكنسية، ولم يكن يحلم بشيء إلا بالوصول إلى درجة رياسة الكهنة. وقد يئس كل اليأس بعد أن أخفق في مساعيه التي لم ينل منها سوى تلك الوظيفة المتواضعة، وظيفة قسيس؛ فلم يلبث فيها إلا قليلًا، ثم انتزعها منه أحد الخونة.

وقد توفي السير «وليم» بعد أن أوصى له بمبلغ زهيد هو مائة جنيه، وأوصى ـ إلى ذلك ـ بأن يعنى بنشر مؤلفاته، وكانت نزعة «سويفت» الهزلية قد ذاعت وعرفت عنه، ولما خشي اللورد «بركلي» أن يصيبه شيء من تلك النزعة وهبه كنيسة «دبلاراكول»، وفي سنة ١٧٠٠ م ألحق بكتدرائية «سان ماتريك » فكفلت له خيراتها المختلفة دخلًا سنويًّا قدره ١٠٠٠٠ جنيه، ثم انقطع «سويفت» إلى «لاراكور»؛ حيث تفرغ لعمله كل التفرغ ، وقد ارتاح لجمال الخلاء ومباهج الطبيعة ، ولكن أطماعه لم تزل جادة في سيرها، وقد دفعته إلى النزوح إلى «لندن»، فاندفع بنشاطه وهمته في ميدان السياسة وأصبح في سنة ١٧٠٤م من أكبر الزعماء ، ولما كان معروفًا بأنه نقاد لاذع في نقده، فائق في أسلوبه التهكمي البارع ـ الذي ظهرت بوادره منذ سنة ١٦٩١م في «معركة الكتب» ـ ظفر من حزبه الذي يناصره ويدافع عن قضيته بأكبر قسط من التأييد، ثم فاجأته بعض الصدمات التي جرحت عزته وكبرياءه، وأيأسته ، فلم ير بُدًّا من العودة إلى «لاراكور».

وقد نشر بين سنتي ١٧٠٤، ١٧١٠م عددًا من تصانيفه الهزلية، وكان لبعضها أثر كبير في مستقبل المملكة، ثم تولى بعد ذلك إدارة جريدة «الاجزامنر»، فحمل فيها على كثير من الكبراء، وسخر منهم ، وندد

بهم في قسوة عنيفة، ثم تزوج سنة ١٧١٩م «باسترجونسون» بنت وكيل السير «وليم تمبل»، وهي فتاة جميلة، وقد ذاع صيتها باسم «ستلا» .

ولما عاد إلى «أيرلندا» نال شهرة شعبية عظيمة، بحملاته على الوزارة الإنجليزية ، وافتتن الشعب عقب نشره «رسالة تاجر جوخ». وقد حمل فيها على إصدار نقود ، وجَرَّأ جميع مواطنيه على رفضها، فأثرت تلك الرسالة في حاكم الهند أشنع تأثير ، فأمر بمحاكمة الطابع، وقرر ٣٠٠ جنيه مكافأة لمن يدله على صاحب هذه الرسالة ، ولكن الطابع بريء.

وأصبح «سويفت» بطل «أيرلندا» المحبوب، وكان في كل مرة يزور فيها «أيرلندا» تقام له الزينات وتسطع الأنوار، وكان يتحاشى كل هذه المظاهرات بوسيلة واحدة، هي الإسراع بالعودة إلى «لاراكور»؛ حيث أنجَز وضع كتابه «جلفر»، وهو أحد مؤلفاته التي سجلت اسمه في عداد الخالدين.

وليست رحلات «جلفر» كما تبدو لأول وهلة مجرد قصص بسيطة عن الجنيات والعفاريت؛ فقد توخى المؤلف فيها، وهو يصف «ليليبوت» و «بربدنجاج» ، عرض أخلاق إنجلترا تحت ستار السخرية.

وقد قال المسيو «تيرته» الناقد المشهور :

«إن كل موهبته وكل مؤلفاته قد تجمعت في هذا الكتاب، وإن عقله الخصب قد طبع فيه صورته وقوته، ولست أرى أثرًا رائعًا في تصنيفه وفي أسلوبه مثل هذا الكتاب ، وما هو إلا صحيفة رجل عادي ، كان جراحًا ، ثم رُبَّانًا ، يصف بقوة وثبات ما وقع نظره عليه من الحوادث والأشياء . وكان «كوك» يكتب على هذا النحو، ولكن «سويفت » قد طلب الحقيقة، فأصابها، وكان فنه في عمله هو أن يجعل الغرض أساسًا ثم يقرر الآثار التي تنجم منه».

وقال مؤلف آخر: «إن سياحات «جلفر » لأشد حزنًا من سياحة «دانتي» خلال الجحيم؛ فأنت عبثًا تلتمس فيها سببًا إلى السماء. فأي موازنة بين سياحة «بونتاجريل» و«رابيليه» الخيالية؟

إن سفينة «بونتاجريل» كانت تجري بعلم تام وبطبيعة تامة، فرياح

المستقبل تهب في ثنايا شراعاتها، على حين أن «جلفر» الذي مثله «سويفت» كان يجري دون أمل أو خيال؛ فقد كشفت له البلاد الموهومة التي هبط إليها، عن نقائص الإنسانية التي زادت خيبته زيادة شنيعة. وقد أدرك منها أن الإنسانية مستعصية الشفاء لا سبيل إلى إصلاحها واستئصال أدوائها ، وأن كل ما فيها إنما هو أنانية وشقاء، وأن العالم ـ حين يتكشف عنها ـ يصبح نوعًا من النيران المتأججة في الفضاء، وقد عمل «سويفت» على تشويهها وتجريدها من قيمتها، كما حقر المثل الأعلى للخلود».

وقد رتب «سويفت» كل شيء بنظرة سائح مطمئنة ، كل غايته وسعيه متجه إلى شيء واحد: هو أن يظهر نفسه بمظهر الحقيقة، وقد كان جادًّا في قوله : «كان من صميم قلبي وبودي أن يصدر قانون يحتم على كل سائح ألا يذيع أنباء سياحاته، وأن يقسم أمام اللورد حافظ الأختام: إن كل ما سيطبعه إن هو إلا حقيقة محضة، أو إنه كذلك على قدر ما يظن، وعلى هذا لا يكون الناس مخدوعين ، كما هم دائمًا مخدوعون. وإني أصوت سلفًا لمثل هذا القانون، وأقبل راضيًا ألا تطبع مصنفاتي إلا بعد تهذيبها».

كان «سويفت» من أشهر أعلام عصره، وقد ظهر لنا في ميدان النقد بصورة رجل هائل، قوي العضلات، مفتول الساعدين، عظيم الخطر في شئون بلده وأحواله، وهو على ثقة بأن ستكون له شهرة خالدة، ولكن الرخاء والسعادة ما كانا لينسياه، وإذا كان من الحق أن «سويفت» ـ وقد غامر في الحياة ـ لم يألف من قبل إلا مرارة التوسل للإحسان حتى اضطر إلى أن يعنو لبعض العظماء ، فمن المحقق أنه كان مسلحًا ، وكان قادرًا على أن يذلل العقبات التي تعترض سموه ورفعته ـ إذا ما توافرت فيه الشجاعة على الصبر ـ التي هي بحق دليل على النفوس الكبيرة، أعني النفوس التي لا تضمر حقدًا ولا غيرة.

ولا مشاحة أن من الخطأ البين أن يضحي الإنسان ضميره في سبيل المصلحة، وأن يوجه ضرباته حينًا إلى حزبه، وحينًا إلى حزب آخر، جريًا وراء الفائدة التي ينشدها ، ويترقب الوصول إليها من أحدهما. لهذا كان ظهور «جلفر» حادثًا جليلًا كما قلنا.

وقد كتب الكاتب القصصي «جاي» لـ «سويفت» في ١٩ من نوفمبر سنة ١٧٢٦ ما يلي: «نشر في لندن «هنا» كتاب عن سياحات رجل اسمه «جلفر» كان حديث الناس في المدينة كلها، وقد بيع جميع ما طبع منه في أسبوع واحد، وليس ثمة ما يدعو إلى الترويح والتسلية، أكثر مما حواه ذلك الكتاب من تنوع الأفكار والآراء؛ فقد أجمع الناس على ذلك، ولم يشذ منهم أحد، وقد تذوقوا لذة كل كلمة فيه ، ولم يعرف الناس اسم مؤلفه، وناشر الكتاب نفسه لا يدري من الذي قدم له هذا الكتاب الذي قرأته جميع الطبقات من أعلاها إلى أدناها، من خاصتها إلى عامتها، من غرفة رئيس الوزراء إلى غرفة المرضع».

على أن «سويفت» لم يكتم طويلًا ذلك السر الذي كان يحرص على ألا يذيعه، فقد أفضى به في سنة ١٧٢٧ م إلى القسيس «ديفونين».

وقد كتب المسيو «نابرو» في معجم أدب اللغة يقول:

«إن رحلات «جلفر» رواية رائعة، تشتمل على إشارات ووقائع عصرية، وتمثل لوثة الإنسانية العامة، وهذه اللوثة وحدها هي التي تهمنا اليوم؛ فقد زعم المؤلف أن جراحًا اسمه «جلفر» روى وقائع غريبة ومدهشة حدثت له بعد أن غرقت سفينته التي انتهت رحلتها إلى «ليليبوت»، في بلد لا يزيد طول أحد من أهليه وساكنيه على ست أصابع، ثم ذهب بعد ذلك إلى «بربدنجاج»، وهو بلد أهله من العمالقة، ثم انتهى به السير إلى جزيرة «لابوتا» التي يقطنها الفلاسفة والفلكيون، ثم إلى «جلوبد» و«يدريد»؛ حيث يسكن السحرة الذين يستعرضون ـ رغبة في الفكاهة ـ عظماء العصور السحيقة، ثم وصل إلى «لوجناك»، حيث أشقى خلق الناس وأتعسهم، وهم أناس مخلدون، وأخيرًا سار في سياحة رابعة ووصل إلى بلاد «الهويهمسم» أي الخيول الرشيدة المتحضرة التي تعيش على مقربة من الأكثرين بشاعة ودنسًا، وحمقًا ووحشية، وهم الرجال، أو «الياهو» وهذه هي الكلمة الأخيرة.

وقد سلك المؤلف في نقده طريقته المسلية التي تنطوي على الزراية بالإنسانية. وقد راج هذا الكتاب

الأول في نوعه وفي عمق فكرته».

و«جلفر» بطل «سويفت» قد ألم بكل شيء وقد قال عنه «بريفت فيرادول»: «إن السياسة المنحطة في الرحلة إلى «ليليبوت» في منازعات عش النمل، تتلاشى حيال الحكمة الهادئة عند أهالي «بربدنجاج»، وحيال الملك الفيلسوف الذي أخذ بيده ذلك المادح الفصيح ـ للتقاليد والأخلاق في إنجلترا ـ وعطف عليه وقال له دون تأثر وانفعال : «إنه يرى أن السواد الأعظم من مواطنيه أحط من سار على وجه الأرض».

ومن بين سياحات «جلفر» التي حازت في فرنسا قسطًا كبيرًا من الشهرة والذيوع ـ قصة «البرميل» التي دس في أثنائها ـ بحجة الدفاع عن الكنيسة ـ كثيرًا من لاذع التعريض بكثير من ذوي الخطر».

وقد أصيب «جوناتان سويفت» ـ في آخر أيام حياته ـ بذهول انتهى بفقدان قواه العقلية شيئًا فشيئًا، وقد قال عنه الناقد «لاهيه»:

«لقد فقد ذاكرته، وقيل : إنه قضى عامًا دون أن يفوه بكلمة واحدة؛ وكان يستبشع صورة الإنسان، ويسير عشر ساعات وهو ذاهل معتوه».

وقد مات «سويفت» في ٢٩ من أكتوبر سنة ١٧٤٥م، وهو في الثامنة والسبعين من عمره، ودفن في كتدرائية «بطريرك».